عبدالعزيز الوائلي



آخرُ الدنّ

آخرُ الدنّ

عبدالعزيز الوائلي

لتواصلكم :

azizwa.sarahah.com


بسم الله الرحمن الرحیم

إهداء

إلى العارجين إلى السماء ..

المُكوّمين في جوف طيرٍ خُضر ..

السارحين من الجنّة حيث شاؤوا ..

الآوين إلى قناديل العرش ..

إلى .. البراء الخليفة ..

إلى .. عبدالسلام السبهان ..

إلى .. عبداللّه العيد .. رحمهم اللّه

إلى كُلّ مَن شدَّ مِحزَمه ..

ونفضَ جبينه من عوالقِ الخوف ..

وانتضى عزمًا هبّارًا يجتثّ خورَ التردّد ..

إلى كُلّ من هزّ صدرَ أمّته ..

يستنهض تاريخَها ويستجدي سؤددها ..

إلى القلوب المصهورة ..

والأصواتِ المبحوحة ..

والرقاب المُعلّقة ..

والأشباحِ المُطارَدَة ..

والأيدي المشدودةِ في الوثاق ..

هذه بضاعةُ الكاسِد .. فاقبلوا متفضّلين !

مدخل

طرحٌ تربويٌّ جديد .. أبى أن يبقى حبيسَ الصدر ، ظلَّ يهدرُ بين جنبيَّ زمنًا حتى طاشَ من يراعةِ القلم، خواطر تئنُّ تحت سياط الذكرى، وأحرفٌ تتوجّعُ من لواعج الأيامِ التي مضتْ وانقضت !

عبدالعزيز ،

› رقمك ضرورة ..

بصفتك أكبر مشرفي المحضن .. والمسؤول الأول عن كل تفاصيله وما يجري فيه .. احرص على أن تنشر رقمك الشخصي بين أهالي الطلاب (الآباء والأمهات) واحرص على التفاعل مع اتصالاتهم واستفساراتهم ، ولا تهمل ذلك ولا تتوانَ فيه .. ومن المهم أن لا يشعر الطالب بما جرى بينك وبين بيته ! والوسائل غير المباشرة في إيصال رقمك إلى من يهمه الأمر كثيرة ، فـ خُذ بأحسنها .

› خفيفة المبنى ثقيلة المعنى ..

(بلّغ سلامي للوالدين) .. دعها حاضرةً على لسانك دون إكثارٍ متكلّفٍ ومُملّ ، هذه العبارة القصيرة المقتضبة تبني صرحًا كبيرًا من الألفة والوئام بين الحلقة والمنزل .. بين ركنين كبيرين يكمّل أحدهما الآخر .

› بين جيلين ..

قال لي "أبو ياسر" في مستهلّ عملي الاشرافي :

في زمننا .. كنّا نتلقّفُ الشباب من الشارعِ فيفتح الله علينا في هدايتهم وتوجيههم والأخذ على أيديهم ، وفي زمنكم ستكونون قد حققتم إنجازًا كبيرًا حين تتلقّفون الشباب الملتزمين فتسهمون في الحفاظ على التزامهم وثباتهم .

و أنا - كاتب هذه الأسطر - أقول : في زمننا هذا سيكون إنجازًا كبيرًا حين نجعل من الشاب عنصرًا خيّرًا فعالًا في هذه الأمة ولو لم يحافظ على مظاهر الاستقامة .

› اقتناص الفُرَص ..

الثناء على الطالب بمحضَرٍ من والده بالقدر الشرعيّ .. يغذّي في الطالب ثقته بنفسه ، ويُدخل السرور عليه وعلى والده ، وهذا يمتّن العلاقة بينك وبينهما .

› رحلة الخوارم ..

في رحلتنا إلى "الأفلاج" كان كل شيءٍ مُرتَجَلًا !! رحلةٌ بلا تخطيط .. بلا برنامجٍ متكامل ! ميْسَم الرحلة الفوضى ؛ ولذا .. كانت الاستفادة منها محدودة ، ومما أذكره من مظاهر الفوضى أن الفراغات في جدول البرامج كانت كثيرة، ولا أبالغ إن قلتُ إنّ الأصل في الجدول وجود الفراغ أما وجود البرنامج فاستثناء ! ووصَل الأمر بنا من شدة التسيّب إلى العبث بالسيارات في حال التنقّل .. وكل سيارةٍ فيها جمعٌ من الطلاب ، وهذا تهوّرٌ وتجاوز !! بل وصَل الحال إلى أنّ أحد المشرفين مدّ يده على مشرفٍ آخر - وأكبر منه - أمام الطلاب فألقاه أرضًا بحجّةِ المزاح !!! كل هذا وأمير الرحلةِ - أكبرنا - يكتفي بالفُرجةِ وتوزيع الابتسامات ! ومما أذكره أننا في آخر يوم - يوم الجمعة - كنا عازمين على حضور خطبة الجمعة إلا أننا تأخرنا في الاستيقاظ فأفطرنا على عجل وتحرّكت كل سيارةٍ إلى الجامع لوحدها دون تنسيق .. فمنّا من أدرك آخر الخطبة ، ومنا من أدرك آخر الصلاة ، ومنا من صلاها ظهرًا في الاستراحة . إنها رحلةُ الخوارم وكفى ؛ تخطيطٌ سيِّئ وأمارةٌ ضعيفةٌ غير مكترثة .

› الحلول العاجلة قد تقتل ..

في إحدى السنوات .. ضعُفت حلقة القسم الثانوي ضعفًا شديدا ، وتقلّص العدد فيها بشكلٍ رهيب .. فبينما كان المعدّل الطبيعي لعدد أفراد الحلقة ثمانية عشر طالبًا ، كان العدد حينها في حلقتنا يتراوح بين الثمانية والعشرة ، ومن بين هؤلاء الثمانية أو العشرة تجد المتردية والنطيحة ، و لا يخفى .. أنّ قلّةَ العدد تُميت البرنامج وتبعث الاحباط في

نفوس الطلاب والمشرفين ، كان الحلّ البديهي للخروج من هذه الأزمة هو البحث عن طلابٍ يسدّون النقص ، والحاجة كبيرة .. مع طول البحث لم نهتدِ إلى ما نريد ، ومع طول التفكير خرجنا بحلٍّ مُبتكَر - على الأقل كما رأيناه آنذاك - ، وهو التواصل مع الحلقات المجاورة ليبعثوا إلينا الفائض من طلابهم .. فكان ! لكنه الحلّ الذي زاد من أوجاعنا !! صارت الحلقات تتخلص من العيّنات الرديئة فترسلها إلينا ، ونحن نقبل دون تمحيص ، أو بتمحيصٍ ناعمٍ لا جدّ فيه .. وكأننا نغضّ الطرف لنسدّ النقص في أسرع وقتٍ ممكن ! ويا ليته لم يكن ..!! اضطررنا فيما بعد أن نستبعد العينات التالفة - بعد أن خالطونا زمنًا - لكن أثرهم السيِّئ على بعض طلابنا استمرّ لسنوات - بلا مبالغة - ، حينها .. أدركنا أن حسن الانتقاء لا غنى عنه ، وأن الكيفَ أولى من الكمّ .. وأن بعضَ العلاجِ له قدرٌ إن زادَ عنه قتَل .

› دقّة بدقّة !

كان "أبو عمر" - مسؤول القسم الثانوي - لا يكفّ يده .. يضرِب هذا ويخنقُ ذاك ، يفعل ذلك مازحًا ، وكان في مزاحه شيءٌ من الكثافة والإثقال ، وهو يظنّ أن الطالب يضحك من باب القبول والاستحسان ، والواقع أنه يضحك مجاملةً وتأدبا ، إلى أن طفح الكيل ببعضهم فصار يقابل الضرب بالضرب - ولا لوم - ، وصار "أبو عمر" مع الوقت .. كلما طالت يده قلّت هيبته .. ذلك بما قدّمتْ يداك ! ودرهم وقاية خيرٌ من قنطار علاج .. فاحفظ نفسكَ مما يُردِيها ، فإن لم .. فلا تلومنّ إلا نفسك .

› فِطنة !

تُبتَلى -كمشرفٍ- بالاحتكاك بمن لهم همومٌ واهتمامات لا تتوافق مع همومك واهتماماتك، ولعل الفارق السنّي بين المشرف وطلاّبه سببٌ رئيس في ذلك .. و أنا من طبعي الشرود الذهني و"التسليك" حين يتحدّث متحدّثٌ أمامي بأحاديثَ لا تشدّني ، وقد

حصل لي موقفٌ في غايةِ الظرف والطرافة مع طالب في المرحلة المتوسطة .. كان يهذر أمامي ويحكي شيئًا من مغامراته وبطولاته .. و أنا لا أشك أنه يزيد فيها ما شاء الله له أن يزيد ، وكنت على العادة .. لا أسمع وكأني أسمع ! شارد الذهن أسبحُ في عالمٍ بعيد .. لكن الجديد هنا أن الطالب ذكيٌ وقنّاص ! قال وهو يحكي ملحمته : (المهم ودخلنا "مطار ثادق" ...) و أنا أبدي تفاعلًا مزيّفًا .. فقلت على الفور دون تركيز فيما قال : (أيوه ...) بمعنى : أكمِل أكمِل فقد أكلني الفضول لمعرفةِ ما تبقى من حديثك !! هنا سكت الطالب .. ورمقني بخبث ، وابتسم ابتسامة الليث حين يظفر بالطريدة ثم قال : (أهااا .. تسلك لي يبو محمد ..!! أجل مطار ثادق أجل !!؟؟) ولا تسل حينها عن وجهي الذي اكتسى بكلّ ألوان الطيف !!

والعبرة : أنك قد تحتاج إلى مجهود ذهني تستطيع معه أن تمنح شيئًا من تركيزك لبعض الطلاب ، وهذا المجهود ليس وراءه خسارة ، إن خسرتَ وقتك فقد كسبتَ قلبه ، والقلبُ غنيمةٌ كُبرى، فاظفر به تربت يداك.

< ترَفٌ أم ضرورة ؟

الحفلات الختامية .. ترفٌ واستعراض ؟ أم ضرورةٌ وحاجة ..؟

سؤالٌ نحتاج كي نجيب عليه إلى تجرّدٍ وتحرر من كل مؤثّر ..

هل إقامة مثل هذه الاحتفالات في قصور الأفراح والاستراحات الفارهة ضرورة ؟ هل التعاقد مع منشدٍ ليؤدي نشيدًا خاصًا بالحلقة مقابل مبلغ مالي ضرورة ؟؟ هل دعوة الأسماء اللامعة لحضور الحفل .. والمشاركةِ فيه أحيانًا ضرورة ؟؟ هل توزيع رقاع الدعوة بشكلٍ مبالغٍ فيه ضرورة ؟؟

يا ترى .. ما الهدف من هذه الحفلات ؟؟

أهوَ تكريم الطلاب ؟ أهوَ إبراز الجهود ؟! أم هو الاستعراض ومناكفة الأقران ..؟؟

رُبّ مالٍ أنفقتَهُ وجهدٍ أهدرتَهُ كان الأولى بك أن تضعه في موضعه ..

› قدَمٌ هنا .. وأخرى هناك

يحصل أن ينتقل الطالب مع أهله من حيّ سكني إلى حيّ سكنيّ آخر ، وكثيرًا ما يترتب على هذا الانتقال تغيير بيئته الحلقاتية ؛ إذ تصبح المسافة بينه وبين حلقته القديمة بعيدةً بشكلٍ يتعسّر معه استمراره فيها ، فيعمد إلى البحث عن محضنٍ قريب من بيته الجديد من تلقاء نفسه أو بمساعدةِ مشرفيه القدامى وهذا من تمام العمل الدعوي ؛ إذ لا يليق بالداعية أن يهمل تلميذه بمجرّد أن تنفصم العلاقة بين المحضن والطالب .. الاشكال الذي ألمسه أحيانًا في مثل هذه الحالات : أن الطالب يختار العيْش في المُنتَصَف بين المجموعتين ، قدمه الأولى هنا .. وقدمه الأخرى هناك ! يشارك هنا في جزء من البرنامج .. ويدّخر بعضَ طاقته ليشارك هناك ! وهذا شتات .. وتشويشٌ على المجموعتيْن . والأَوْلَى أن تحسِم المجموعةُ القديمةُ هذا التشرذم فـ توحي للطالب أن هذا الصنيع آفة ، وأن الاستقرار مع المجموعة الجديدة صوابٌ لابدّ منه . ومع الوقت والاعتياد والانهماك في برامج المجموعةِ الجديدة سيخبو هذا الشوق العارم إلى العهد القديم في نفس الطالب ، وسيعتاد على الحال الجديدة .. وهذا مُجرّب ، ولا مانع بعد ذلك من زيارات على فترات متباعدة تُسكّن الشوق وتجدد العهد .

› رحلة الـ الخمس عشرة ساعة .. أو تزيد

من سوء التخطيط للرحلة أن لا تُحسِنَ اختيار وسيلةِ النقل المناسبة .. لا سيّما إذا كانت المسافةُ بعيدة ، و أضعف الإيمان أن تختبر هذه الوسيلة في طرقات المدينة قبل السفر ، ومن أهم الاختبارات التي يجب أن تتجاوزها المركبة حتى تكون مهيأةً للسفر : (الراحة - التكييف - النظافة - السلامة "الاطارات خصوصا" - السائق) .. في صيف إحدى

السنوات .. سافرنا إلى "المدينةِ النبوية" دون أن نختبر الحافلة (باص كوستر ٣٠ راكب، وهو من أسوء ما يكون في المسافات البعيدة) ، كانت الصدمة كبيرة حين علِمنا أن سرعته لا تتجاوز (٧٠ - ٨٠ كم / ساعة)، وكانت الصدمة أكبر حين اكتشفنا أن التكييف ليس بذاك ! لا حلّ سوى الصبر والتسليم ! وبعد أن انتهت الرحلة، حصل لغطٌ بين المشرفين حولَ الوسيلةِ التي سنعود بها إلى الديار؛ إذ العودة بالحافلةِ ضربٌ من ضروب المشقةِ والتعسير ، البعضُ طالَبَ باستئجار عددٍ من السيارات (جموس) للعودة بها إلى الرياض بدلًا من هذ الحافلة التعيسة التي جمعت بين البُطء وسوء التكييف ، وحرّ الصيف لا يُطاق .. وأبعدَ بعضهم فطالَبَ بالعودة عبر الطائرة ، وتحقيق هذا بعيد ؛ نظرًا لكثرة العدد مع ضيق الوقت .. وأصرَّ البعض على ضرورةِ الصبر والتحمل ، فما بقيَ أقل مما مضى والنصر صبر ساعة ، فكان هذا الرأي هو الرأي ، لا عن قناعة .. بل مكرهٌ أخاك لا بطل . الذي لن أنساه أبدًا .. أننا انطلقنا من المدينةِ صوبَ الرياضِ بعد الظهر مباشرة ، ولم ندخل الرياض إلا على أذان الفجر - شهِد الله - ويا لطول المدة .. ويا للملل .. ويا للجهدِ الذي بذله المشرفون في تزجيةِ الوقتِ حتى لا يأكل الملل قلوب الطلاب!! والطريف .. أن المرور حرر لنا مخالفَة سُرعة .. ويا للسخرية !!!

› كرّة أخرى ..

في رحلتنا إلى "حائل" تكرر الخطأ نفسه !! لم نتحقق من جدوى وسيلة النقل كما يجب .. كنا في مأزق شديد مع التكييف ، صيفُ "نجد" شيءٌ لا يُطَاق ، وهذه الحافلة البئيسة طوَتْ بنا الطريق دون أن ترحمنا بنسمةِ هواء باردة ، لكأننا في تنّور مسجور !! ما زال لتذمّر الشباب صدى أسمعه يتردد في أذني .. شيءٌ واحدٌ كان يغذّي صبرَهم ، كانوا يقولون : لعل في أجواء "حائل" ما ينسينا مرارة هذا الصبر ! لقد كانوا واهمين !! الشمسُ هنا هي الشمسُ هناك .. لا فرق ! اخترع "سعود" اختراعًا ظريفًا في طريق العودة .. خفّف عنه شدّة ما يجد من الحرّ ؛ حيث عمدَ إلى "منشفة" تخصّه ، ثم بللها بالماء ، ثم غطى بها

الزجاج الخلفي في مؤخر الحافلة وفتح النافذة وجلس في المقعد الأخير .. صار الهواء يدخل من النافذة فيضرب المنشفة المبللة ثم يرتدّ على "سعود" فيغذّيه بهواء بارد منعش .. جربتُ الجلوس مكانه ، بالفعل كان اختراعًا مجديًا وفعّالا ، ولولا أن الله حباه بسطةً في الجسم لطُرِد من مكانه شرّ طردة ولاستأثرَ بمقعده مَن لا صبرَ له !!

› لهاميم .. الشجو والشجى

يطيبُ لي كثيرًا أن أتحدث عن "لهاميم" .. عن مشروع من أنجح المشاريع التي عشتُ فيها ومعها ! مشروع بدأ بجهدٍ فرديّ من لدن ثلاثة طلاب ، ولم تغب شمسه حتى بلغ عدد العاملين فيه أكثر من عشرين فردا ما بين مشرف وطالب .. أتحدث عن مشروع المجلة الورقية "لهاميم" التي تصدر عن حلقتنا - القسم الثانوي - آنذاك ! كان الهدف الأكبر منها ربط الحلقة بالمنزل ، كأنها آلةُ بثّ تنقل وقائع ما يجري إلى المنزل .. بل هي كذلك ! بدأت بأربع ورقات .. وبلغت في أوجها أكثر من أربعين ورقة بجهود مشتركة بين المشرفين والطلاب ، فالطلاب يتولون أكثر الصفحات والزوايا بالإضافة إلى عمليّة الكتابة والتحرير ، والمشرفون يتولون الصفّ والتنسيق والمتابعة والإخراج ! ومن أبرز الزوايا التي لا تزال عالقةً في الذهن : (أخبار الحلقة "مع الصوَر أحيانا" - تحقيق "يشارك فيه المنزل من آباء وأمهات وأقارب" - لقاء العدد - تقرير لجنة القرآن - كرسي الاعتراف - نون النسوة "حيث هي مساحة للأمهات" - ...) ولا تسل عن الحرص والسؤال مِن قِبَل الأهالي والطلاب إذا تأخر صدور العدد ، بل وصل الحال إلى أن طلاب الحلقةِ صاروا يأخذون بعضَ النسخ - فخورين - إلى مدارسهم .. فصار طلاب المدارس يسألون عنها إذا تأخرت !! استمرت المجلة قرابة سنتين ونصف أو أكثر ، وصدر منها قرابة خمسةٍ وعشرين عددا ، بمعدل خمسةِ أعداد كلّ فصلٍ دراسي ! والحقّ أنه رغم إيجابياتها الطاغية إلا أنه كان يشوبها بعض السلبيات ، ومن أهمها :

١. توتّر العلاقةِ بين المشرفين والطلاب ، وأحيانا بين المشرفين والمشرفين وذلك في حال تأخر إصدار العدد لأي سببٍ كان ، تجد التأخر بسبب إهمال طالب ، فيغضب عليه مَن يغضب ويأتيه التأنيب من كل مكان .. أو بسبب برود مشرفٍ وعدم حرصه على المتابعة وضعْفِ سعيه في إخراجها فيحنق عليه المشرفون بينما يكظم الطلاب غيظهم !

٢. انصراف كثيرٍ من الطاقات والجهود إلى المجلة على حسابِ أمورٍ أخرى قد تكون أولى وأهم .. وهذا الأمر بانَ باتّساع المجلة ، فالمزيد من التوسّع يعني المزيد من الجهد والطاقة .. وقد يعني المزيد من الضغط والتوتّر والحساسية ! بل إن أحد المشرفين انسحبَ من العمل الإشرافي برمّته بسبب هذا .. حيث لم يعُد بمقدوره أن يتحمل هذا العبء الشديد - وإن كنت أراه مهملًا وقتها - فاختار تغيير الوجهة .

٣. الكلفة المالية التي يتحملها كل عدد ، وتزداد هذه الكلفة بازدياد الصفحات ..

هذه أبرز السلبيات .. ولو استقبلتُ من أمري ما استدبرت لاكتفيتُ بعددٍ واحد كلّ شهر لا تتجاوز ورقاته ست عشرَة ورقة ؛ فقليلٌ دائمٌ هادئ خيرٌ من كثيرٍ صاخبٍ مُنقَطِع .

أما مع التقدّم الذي نشهده .. فوسائل التواصل بين الحلقةِ والمنزل باتت أجدى وأسهل وأسرع وأذكى ! مما يجعل المجلة مع هذه الوسائل طللًا باليًا .. فبعض المجموعات تجمع الآباء في مجموعة تواصلية مستقلة ومثلها للأمهات وبها يكون التواصل وعن طريقها تُرسَل الأخبار والصوَر والتقارير .. إلخ .. ويا لسعادة الأهالي بمثل هذا ، فافعل ولا حرج !

ما زلتُ أحتفظ بكل أعداد "لهاميم" أستنشقها وأقلّبها وأقبّلها .. ويا طيبَ الربوع !

› الباذلون السابقون المقرّبون ..

البذل .. علامةٌ فارقةٌ في هذا الطريق ! بل وفي كلِّ طريقٍ تغذُّ فيه الخطى إلى الله .. ولن يستوي - عند الله وعند الناس - مشرفٌ يبذلُ مالَه في هذا الطريق ومشرفٌ يُحجِم عن ذلك ، نعم قد لا يكون البذلُ الماليّ واجبًا على المشرف لكن لا شك - إن فعل - أنه رِفعَةٌ وكمال ، إن الله لا يضيع أجرَ من أحسنَ عملا . ولو قلّبتَ نماذجَ مرّت بك من المشرفين والمربين لاستقرّ في سويدائك نماذج تستعصي على النسيان .. أهلُ البذل الماديّ ستجدهم يقينًا في مقدّمة هذه النماذج البيضاء المشرقة .

كيف لا يخلد "محمد" في قلبي وهو الذي قال لي : (أضع تحت تصرّفكَ للرحلةِ الختامية عشرة آلاف ريال) وهو طالبٌ جامعيّ لاحول له ولا قوّة ؟

كيف لا يخلد "خالد" في قلبي وهو الذي ينفق قريبًا من نصف راتبه المتواضع على برامج الحلقةِ ورحلاتها ؟

كيف لا يخلد "عبدالإله" في قلبي وهو الذي جعل من سيارته وقفًا للحلقة في أسفارها ورحلاتها ، لا تسافر المجموعةُ إلا وسيارته تتقدم الحافلة ، تسدُّ نقصًا وتلبي حاجة وتحضر عند ضرورة ؟ بل حصل أمامي أن قرر المشرفون الذهاب في رحلةٍ خاصة إلى "المدينة" ، وكانت سيارة "عبدالإله" متهالكة .. على خلاف سيارات بقيّة المشرفين ؛ إذ كانت مراكبهم من الموديلات الحديثة ، فالتمسَ منهم أن يكون السفر بسيارةِ أحدهم مراعاةً لحال سيارته ، فتنصّلوا .. فما كان منه إلا أن أدار مفتاح التشغيل ودعاهم إلى سيارته فانطلقوا بها .. هل يستوون ؟؟

› الذوقيّات .. ارتقاء

تربية الشباب على الذوقيّات - فضلًا عن أبجديات التواصل - رُقيٌّ وكمالٌ محمود .. من الأشياء المُلفتة للانتباه أن تزورَ حلقةً لأول مرة ، ومع كل مصافحة تجد الطالبَ يبادر

ويعرّف باسمه دون أن تطلب منه ، هذا ذوْق في المصافحةِ الأولى ! لم يكُن مُلزمًا بهذا .. ولا ينقص من قدره إن لم يفعل لكن المجموعة تربّت على هذا الكمال .

مجال الذوقيّات واسع جدًا لاسيّما في مثل هذه التجمعات المباركة ، ومن كمال الداعية وجماله أن يعتني بها .. ويربّي أتباعه عليها ، خذ عندك مثلًا : الذوق في وقت الحلقة ، في السيارة ، في الزيارة المنزلية ، في الرحلة ، في السفر .. إلى آخره.

والضدُّ قد يكون قبيحا .. ومنه : أن مجموعةً زارت طالبًا في منزله .. فتعارك اثنان من الطلاب في المجلس - مزاحًا - ولم يرعهم إلا ووالد الطالب قد دخل فجأة ! فتأمل القُبح وشناعة الموقف !! فإن قلت : أين المشرفون ؟؟ أقل لك : كانوا يتفرجون !!!

أيضا .. من قلّةِ الذوْق .. أن يحين وقتُ الوجبة فيبدأ أحد الطلاب بالتهامِ وجبته قبل أن يبدأ البقيّة .

أيضًا .. من قلّةِ الذوق .. أن أحد المشرفين كان لا يتحرجُ من تناول وجبةِ الغداء والطلاب معه في السيارة !!

أيضًا .. من قلّة الذوق .. أن يتأخر المشرف عن الطالب في المرور أو في وقت التسميع .. إلخ .. دون أن يستهلّ لقاءه باعتذار ، وعلى الطالب مثل ذلك إن فعَل .

والمشرفُ أولى بهذا الخِطَاب من الطالب ؛ لأنه في مقام الاقتداء .. فليسمُ بذوقه في كل ما يستطيع ، في حديثه .. لباسه .. رائحته .. تعامله .. سيارته، فإن فعَلَ كان أثره فيمن تحته أقوى وأبلغ .

فإن قلت : وما ذنبي حين تكون تنشئة البيت رديئة ؟؟ فبعضُ الصوَر في الأعلى يتحمّل وزرها بيئة الطالب .

أقل لك : فليكن .. ما مهمتك إذًا ؟؟ ألستَ داعيةً مربيًا مُصلحا ؟؟ ألستَ تُخرِج الشباب من ظُلمات الخطأ إلى نور الصواب ؟ فبادر و انزع من أعماقهم كلّ تصرّفٍ رديء ، و ازرع في دواخلهم كلّ عملٍ صالح ، وما يدريك لعل الله يصلح به أمةً خلفه .. فإن لم .. فتذكر أنه سيكون ربّ أسرةٍ غدًا ، فأي أثرٍ حسنٍ بسببك سيبقى ؟؟ فإن بذلتَ كلّ مجهودك فلم تصِل .. فتذكّر : (لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ) ، ويكفيك شرف المحاولة ، ولا تثريب .

> الابتكار ضرورة

بعضُ الأفكار تخلق جوًّا مختلفا ، تُخرِج المجموعةَ من ضيق الرتابةِ إلى سعَةِ التجديد والإبداع ، والعقول المبتكرة في المحاضن عملةٌ نادرة .. أستطيع أن أجزمَ أن الله يحفظ بها فئامًا من الشباب من دركات الانتكاسة ؛ ذلك أن التجديد يحفّز الطالب الملول على الحضور ، ويسدّ منافذ التسرّب والانقطاع ، وهو - أي الابداع والتجديد - ميدانٌ رحيب ومجالٌ واسع .. وتفعيله إحسانٌ إلى أعضاء المحضن .. و أنا عبر هذه الخواطر سأرقمُ ما علق في ذهني من الأفكار المبتكرة في شتى البرامج ، علّها أن تقع بين يدي من يستفيد منها مع مجموعته .

> ساعةٌ ثقافية دون كُلفة ..

من الأفكار الجميلة للبرامج الثقافية : في برنامج نهاية الأسبوع "الاستراحة" بإمكانك أن تغيّر برنامجك الثقافي المألوف ؛ أحضر معك مجموعة من الكتب – اثنا عشر كتابا مثلا - في فنون مختلفة وبعناوين متنوّعة ، قسّم الشباب على ثلاث مجموعات .. لكل مجموعة أربعة من الكتب ، ثم اطلب من كل مجموعة أن تجتمع على حِدة فتختار من كل كتابٍ مقطعًا تراه المجموعةُ مناسبًا، ثم اجمع الطلاب واطلب من كلِّ مجموعة أن تلقي ما لديها

في غضون ثلث ساعة ، و بنهاية البرنامج ستجدُ أنك أدّيتَ ساعةً ثقافية كاملة ، بطريقةٍ جديدةٍ مُبتكَرة دونَ جُهدٍ يُذكَر .

› ضرر الخلطة ..

قال لي أبو راكان : المشرف / المربّي العامل .. إذا خالط - بكثرة - المشرفين البطّالين / المنقطعين فإنه قد يتأثّر بذلك سلبًا فيميلُ إلى حياةِ الدَعَةِ والخمول ، أو قد يفضّل برنامجًا أو مجموعةً تُرخَى فيها القيود وتُحَلُّ الحبال كما هو حال مجموعات المشرفين الخاصة بما فيها من لقاءات نافعةٍ وضارة ، ويزداد المشرفُ ميْلًا إلى هذه الفئة حين يحضر - بكثرة - المجالس التي يتداولون فيها مغامراتهم ورحلاتهم .. فتتوق نفسه إلى الانعتاق من قَيْدِ العمل المنضبط ، حتى يتنفّسَ شيئًا من الحرية التي يتنفسها الآخرون .

› توفير !

في ميدان العمل عمومًا - التربوي خصوصًا - هناك اختصاراتٌ نافعة كاختصارات لوحة المفاتيح "الكيبورد" ، هذه الاختصارات توفّر عليك جهدًا ووقتًا ، وتدّخر لك طاقاتٍ ستحتاجها يوما ! والمشرف النبيه يُفعِّل هذه الاختصارات متى ما وجدَ إليها سبيلا ، مثلًا : حسب الخطّة المرسومة للمجموعة، لديك في نهايةِ كل أسبوع من هذا الشهر لقاء في استراحة ، كانت طريقتنا آنذاك تكليف كل مشرفٍ بأمارةِ لقاءٍ أسبوعي ، وبصفته الأمير فإنه مسؤول عن اختيار الاستراحة واستئجارها ، العملية مرهقة .. أو بعبارة أدق : كان من الممكن أن نوجدَ اختصارًا يوفّر بعضَ الجهد . فبدلًا من أن تخرُجَ سيارة كل أسبوع للبحث عن استراحة مناسبة .. كان بالإمكان أن نكلف شخصًا واحدًا باستئجار الاستراحات الأربع دفعةً واحدة ، وهذا أحفظ للطاقات .. لا سيما وأن موقع الاستراحات سيكون متقاربا ؛ فتكون حركةً واحدة من مشرفٍ واحد في زمنٍ واحد ، وذلك خيرٌ من أربع حركات من أربعة مشرفين في أربعةِ أزمان ، جربنا ذلك فاسترحنا ..

ولو كان بالإمكان حجز الاستراحةِ بالهاتف مع انضباط صفتها لكان أفضل وأوفر للجهد.

ومثله : أننا في رحلتنا الختامية، اشتركنا مع مجموعةٍ أخرى في إعداد البرنامج الترفيهي للرحلة ، فالبرنامج الترفيهي أثقل ما يكون في مثل هذه الرحلات .. والمجموعة الأخرى لديها رحلةٌ ختامية لكن إلى وجهةٍ مختلفة ، اجتمع مشرف اللجنة الترفيهية من مجموعتنا مع مشرف اللجنة الترفيهية من مجموعتهم ، واتفقا على البرنامج كاملًا (برنامج الباص ، المسابقات الورقية ، المسابقات الأسرية .. إلى آخره) ، ثم تقاسما العمل بينهما ، و أخيرًا .. خرجا بعملٍ متكامل بنصفِ المجهود !

ومثله : لو توافقت عددٌ من المجموعات على تنسيق درسٍ علمي واحد بدلًا من انفراد كل مجموعةٍ بدرسٍ مستقل ، وقد كنا قديمًا أربع مجموعات نحضر درسًا واحدا ، وهذا - كما لا يخفى - يحتاج إلى تنسيق مسبق في اختيار الدرس والملقي . ومن المعلوم أن وجود العدد الكبير يشجع الملقي على الموافقة .

وهكذا ..

› النسي المنسيّ ..

تتكدس عند المشرف كثيرٌ من بقايا "الشباب" ، عندك مثلا : بقايا الحلقة (أوراق ، جوائز لم يأخذها أصحابها ، مبالغ مالية ...) ، بقايا التخييم (مواد غذائية ، عزَب ، ...) ، بقايا رحلات السفر (ملابس يُجهَل صاحبُها ، كتب ، مبالغ متبقية من ميزانية الرحلة ...) ، بقايا المركز/النادي الصيفي (أدوات طباعة ، أدوات رياضية ، ...) .. كل هذه الأمور إن لم يتخلص منها المشرف أوّلاً بأول - وفق فتوى شرعية - فسوف يلاقي عنتًا ومشقةً شديدة في التخلص منها لاحقا ، والمشكلة أن بعض هذه البقايا تُبتَلى بها مرغمًا ، ينساها أحدهم في سيارتك مثلًا ثم تفقده أو لا تعرفه .. ما زال عندي بقايا لا أعرف لمن !!

جوائز .. ملابس رياضية .. مبالغ .. بقايا "عزَب" .. أدوات رياضية .. كتب ...! ماذا لو تخلصتُ منها على الفور ؟؟

› تحقيق المخطوطات ..

من الأفكار الثقافية / الترفيهية الجميلة .. "مسابقة تحقيق المخطوطة" ، الفكرة سهلة وغير مكلفة وفيها متعة ، كل ما عليك أن تختار صفحةً بخطّ أحد الأئمة السابقين من أحد كتبه المُحقّقَة ، ثم تطلب من المجموعات الاعتكاف عليها مدةً معيّنة وإخراجها بنصٍّ واضحٍ دون أخطاء ، والمجموعة الأقل خطأً تكون هي الفائزة .. وفي ذلك فوائد ، منها : ربطهم بتراث وشخصيات أئمة الإسلام ، معرفةُ فضل محققي التراث وصبرهم وجهدهم ، اكتشاف الميول وتغذيتها .. فلا تدري لعل أحدهم يجد نفسه في هذا المجال فيفتح الله عليه .

لا يخفاك .. أن تسمية هذا العمل "تحقيق" فيه تجوّز .. فتجاوز !

› لياقة اللباقة ..

هناك قدرٌ من اللباقة والأدب زائدٌ لابدّ أن يتحلّى به المربّي / المشرف ! وقد يُقبَل من الطالبِ أن يتنازل عنه ولا يُقبَل ذلك من المشرف ؛ ذلك أن مقامَ المشرف ذو أثر ، وتصرفاته تحظى باهتمام الطلاب .. وكلامه في طالبٍ أو سخريته منه – جادًّا أو هازلا - تترك جرحًا غائرا ، ومن اللباقةِ تجاوز بعض الأخطاء والمواقف ، والتغافل عنها .. وخلاف ذلك مستقبَح ، لاسيّما الفضيحة والتشهير !

أحد المشرفين سافَر مع مشرفٍ آخر ، لما عادا .. جاء الأول مستبشرًا : (شفت فلان ؟ سافر معي وفي السيارة أخذته نومة وصار يتكلم بدون شعور) ، طيب ؟؟!! ، (وسحّبت منه كلام بخصوص القضية الفلانية والقضية الفلانية - يقصد مشاكل كانت في حلقتنا - وقال كيت وكيت) يا سبحان الله !!! عملٌ غير صالح ! وفوق هذا تتكئ على هذيان !؟؟

آخَر : كنا مخيمين في منطقةٍ برّيّة ، وحان وقت النوم .. أحد الطلاب استغرق في النوم ، جاء أحد المشرفين ليتفقّد أحوال الطلاب ، وبالخطأ - مع ضعف الإضاءة - داسَ المشرفُ رجلَ الطالب ، استيقظ الطالب نصف يقظةٍ ورمى كلمةً جارحة غير معتادة على المشرف - دون شعور - ثم عاد للنوم ! التصرّف السليم أن يتعامى المشرف عما سمع ، لاسيما والطالب كان في سكرةٍ بين النوم واليقظة ! أخونا في الله "المشرف" لما أصبح الصبح أخذ يبتزّ الطالبَ بما سمع ، ابتزاز بمزاح .. لكنه طال فأوغر الصدر !

أيضًا : في مخيمٍ آخر .. نام الشباب في الخيمة جميعًا ، فلما أصبحوا تدَاعوا على أحدهم : (أزعجتنا بشخيرك .. لا تنام هنا الليلة الجاية .. الخيمة ترقى وتنزل من شخيرك ..) شيءٌ من الشكوى جاد ، وشيءٌ متهكم ، وشيءٌ مشوبٌ بذا وذاك ، ثم لما طمى الليل .. اختار المسكين وببساطة أن ينام خارجِ الخيمة . أنا على يقين أنه تأذى من تجريح أصحابه ، لكن ماذا لو كان هذا التدَاعي من المشرفين أو من بعضهم .. سيكون الوقع شديدًا على الفتى !

› الهرمون القاتل ..

وعلى ذكر التخييم .. فإنه في "الكشتات" ورحلات التخييم يرتفع هرمون الاستعراض عند بعض المشرفين فتحصل الكارثة، تخيّل أننا كنا مخيمين في إحدى الرياض القريبة ، وكان يخيّم في الروضة نفسها بعض المشرفين في رحلةٍ خاصةٍ بهم ، وكان قربهم منّا لا بأس به ، شاء الله أن يزورونا جميعًا في مخيمنا ، أحدهم كان يحمل في يده سلاحًا ناريًّا !! لا لشيء .. فقط للاستعراض .. ما الفائدة من هذا ؟؟ هلّا أبقيته في السيارة أسلم لنا ولك ؟؟!

وينفلتُ هرمون الاستعراض عند بعضهم فيختارون العبث بالسيارات ، معرّضين أنفسهم ومن معهم للخطر .. راليّات في البرّ يا رجُل !!

ويستعر الاستعراض حتى يقع الحادث ، أحدهما كان في "خريم" حين انقلبت السيارة بمن فيها .. والحمد لله الذي لطف وستر ، والثاني في "الثمامة" .. وكم لله من لطفٍ خفيّ ! أما الثالث فكاد أحد المشرفين أن يدهس طالبًا في "بنبان"، والوزر هذه المرة على الطالب ، فهو الذي كان يستعرض أمام السيارة ، والمشرف لم يكن باستطاعته أن يسيطر على السيارة ؛ لأن الأرض كان وحلة .. والمطر ينهمر بغزارة ! لكنّ الله سلّم وستر .

> عيّنة لا تتكرر كثيرا ..

قال لي معاذ : (في سبيل الشباب .. "ادعس" على الريال) ، أنتَ في سبيل الشباب يا معاذ .. كنت "تدعس" على الريال وعلى كل شيء ! وأنا على ذلكم من الشاهدين !

هذا الرجل أنموذج فذّ في البذل .. بعض النماذج تجاهد نفسها في البذل ، وبعضها تبذل فطرةً ، وهو من الثاني وذلك فضل الله ، كما في الحديث أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال لأشج عبد القيس : (إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم، والأناة) فقال الأشج : يا رسول الله كانا فيّ أم حدثا ؟ قال: (بل قديم) فقال الأشج : الحمد لله الذي جبلني على خلقين يحبهما .

كنتُ أخالفه في قضايا كثيرة .. ثم ما هو إلا أن يتبيّن لي صواب رأيه ! كان يمثّل التيار الإصلاحي داخل المحضن .. فيتصادم مع بعض المشرفين في بعض القضايا جراء ذلك، ويدخلون معه في أخذٍ وردّ ، ومع ذلك .. كان أحرصَ الناس على تنسيق لقاءات المشرفين واجتماع قلوبهم قبل أجسادهم ، ورغم ما يلقاه من جفاء بعضهم إلا أنه لا يجفو (لئن كنت كما قلت فكأنما تُسفّهم الملّ، ولا يزال معك من الله ظهيرٌ عليهم ما دمت على ذلك) كما في الحديث ..

ومن طريفِ ما جرى له وقد وقفتُ عليه : أن برنامجنا مع الشباب في نهايةِ الأسبوع تقرر أن يكون في "الثمامة" ، فاخترنا أن تجتمع السيارات عند أحد الجوامع المطروقة ،

ومن هناك ينضم أصحاب السيارات الصغيرة بمن معهم من الطلاب إلى أصحاب السيارات الكبيرة (الجيوب / الهايلكسات) .. وكانت سيارة "معاذ" من السيارات الصغيرة ، فانضم بطبيعة الحال إلى سيارة أخرى وترك سيارته عند الجامع ! كان البرنامج وفق ما خططنا له ، ثم في نهاية اللقاء .. تحسس "معاذ" جيبه باحثًا عن مفتاح سيارته ليتأكد أنه معه ؛ خشيةَ أن يكون قد سقط في الكثبان .. لكنه لم يجده !! طال بحثه وراح يفتّش في الأماكن التي مرّ بها فلم يقع على شيء !! قال لعلي نسيته على باب السيارة .. فليس هذا ببعيد . تحركنا من "الثمامة" في وقتٍ متأخر واتجهنا صوبَ الجامع ، وأخيرًا وصلنا .. كان الهدف الأول عند "معاذ" أن يفتش أبواب سيارته ، لعله نسي المفتاح على الباب وهو يقفلها ! ويا للعجب !!! وجدنا السيارة في حالة تشغيل !! والأبواب غير مقفلة .. ظلت كذلك من بعد العصر حتى الساعة الثانية عشرة ليلا تقريبا ، والجامع قريبٌ من الطريق العام والناس تتوافد عليه بكثرة ، إلا أن الله حفظ له ماله من عبث اللصوص . وكان يستدل بهذا الموقف كثيرا على كونه في أعلى مراتب الولاية :)

و بالإضافةِ إلى صفةِ البذل .. فقد كان "أبو عبدالله" يتميّز بخصيصةٍ أخرى نادرة ، كان مثالًا للمشرف المجدّد ، صاحب الأفكار المتفرّدة ، كان إذا تولّى شيئًا أخرجه بأبهى حلةٍ وأجمل صورة ، يبهرك بأدائه وأفكاره .. مع مزاجيّةٍ تعتريه تكدّر هذا الجمال ، والكمال لله وحده .

› مفرّق الجماعات ..

لا يخفاك .. أن الحواجز بين المشرفين أقلّ بكثير مما هي عليه بينهم وبين الطلاب ، فتجدُ بينهم صراحةً سافرة في طرح بعض القضايا المنهجية أو التربوية أو السياسية أو غير ذلك .. وكثيرٌ من هذا الطرح ليس له ثمرة سوى اللجاج والخصومة ثم التنافر والتهاجر !

بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر .. حصلتْ انقسامات كبيرة على مستوى العامة وعلى مستوى النُّخَب ، وجرتْ بعد ذلك أحداثٌ زادت من سعار التشرذم والانقسام ! ولم يسلم شبابُ الحِلَق من ذلك ، فما هم إلا جزءٌ من المجتمع .. كنا - كمشرفين - نلتقي لقاءات عابرة في بدايات تأسيس العمل في الجامع ، نلتقي في مخططٍ أو في مخيّمٍ أو في متنزّه بريّ .. لقاءً لا علاقة له بالعمل ، إنما للترويح و المؤانسة .. كان العدد لا يتجاوز العشرة ، وكنا - كغيرنا - نطرح بعض القضايا الحسّاسة (السياسية والفكرية) ، فيعلو الصوت وتشتد وتيرة الجدل ، كلٌّ ينصر رأيه بأقوى أداةٍ يملكها ، فلا ينتهي المجلس إلا وفي القلوب دَخَن ، وما أبرئ نفسي ! المشكلة .. أن كثيرًا من تلك القضايا - بل أكثرها - لن يُقدِّم نقاشنا فيها شيئًا ولن يؤخر (من وراء أحداث سبتمبر مثلا؟ وهل أضرّت أم نفعت؟) ، أتفهّم النقاش في مثل هذا ولا أمنعه ، لكن المصيبة حين يجدُ المشرف في قلبه على أخيه شيئًا بسبب ذلك النقاش ، هذا الذي يؤلمني والله ! ولو كان النقاش في قضايا تربوية أو تنظيمية تتعلق بالعمل (وهذا يحصل أحيانا) لكان الخلافُ أمرًا مفهومًا ؛ نظرًا لما يترتب عليه من عمل ..

بل من المضحكات المبكيات .. أننا اجتمعنا مع المشرف العام "أبي راكان" بعد انتهاء الحفل الختامي لننظر في سلبيات الحفل فنتجاوزها في الحفل القادم ، ونأخذ الإيجابيات فنعززها مستقبلا (وكانت هذه سياسته دائما) ، وكان من ضمن الفقرات التي أذيعت في الحفل تلاوةٌ بروايةٍ أخرى غير الرواية المعهودة (حفص عن عاصم) ، وكانت هذه الفقرة محل نقدٍ عند ببعض المشرفين الذين حضروا الاجتماع ؛ إذ يرون أن فيها إيهامًا للمتابع، فهو قد يفهم من هذه التلاوة أن الجامع يعتني بالقراءات الأخرى ويُقرئ بها ، والواقع أنه ليس كذلك .. بينما ذهب الفريق الآخر إلى تأييد الفقرة واستحسانها ، ورموا مخالفيهم بالتحسس والمبالغةِ في الأمر ! فاشتد النقاش وارتفعت الأصوات .. ويا لطيف لطفك !!

وصلتُ بعدَ ذلك إلى قناعة فارتحتُ كثيرًا .. وهي أن أنأى بنفسي عن هذه النقاشات ما استطعت ، و إذا دخلتُ فبقدر ما أبلغ رسالتي ورؤيتي ، فإذا استمر الخلاف .. عذرتُ صاحبي ما استطعتُ وكففتُ عن النقاش ، وهذا متأكدٌ في القضايا التي لا يترتب عليها عمل .

› فِلاحة ..

من الأفكار الجميلة التي طبقناها ضمن البرامج الترفيهية ، ووجدنا لها صدى وتفاعلا محمودا .. برنامج (أجمل مشتل) ، قسّمنا الشباب إلى أربع مجموعات - وكان العدد كبيرًا - بالإضافة إلى مجموعةِ المشرفين الخامسة ، وأحضرنا من أحد المشاتل مجموعةً كبيرةً من الشتلات ما بين ورودٍ بألوان مختلفة وشجيرات صغيرة بالإضافة إلى الأسمدة و أدوات التزيين ومعدات الزراعة الصغيرة ، أما مكان المنافسة فقد كان في إحدى الاستراحات .. وجدنا فيها مساحةً ترابية مناسبة لإقامةِ البرنامج وذلك بعد استئذان صاحبِ الشأن (الحارس) ، فقسمنا المساحة على المجموعات ، لكل مجموعة قرابة (مترين في متر) .. وهات يا إبداع ! ستتفاجأ بكمية الإبداع الكبيرة كما تفاجأنا نحن .. وتكلفة البرنامج ليست بالكبيرة .

› المنافسة الراشدة ..

مشاركة المشرفين في البرامج كمنافسين للطلاب أو كمحرّكين للبرنامج له أثرٌ عظيم على الطالب وعلى المشرف وعلى البرنامج نفسه ، فإياك أخي المربّي والتفريط في هذا ، فهو واللهِ مُجَرَّبٌ وأثره ملموسٌ ومُشاهَد .. حتى إنه ليخلق جوًّا من الوئام بين المربّي وطلابه لا يجده المربّي الذي ينأى بنفسه عن المشاركة ، يستوي في ذلك أن تكون المشاركة فردية (تنافس بين مشرف وطالب في مراجعة سورة معيّنة مثلًا "الأقل خطأً") أو جماعية (مثلًا : يُكوِّن المشرفون من أنفسهم مجموعة مستقلة في المنافسات الأسرية، أو ينضم كل فرد

منهم إلى مجموعة كعضو من أعضاء الفريق ليس له مزيد مزية) ، أتذكر جيدًا كيف كان حالُ المشرفين في الدورات الصيفية القرآنية الصباحية ، بعضهم كان يسجّل كمشارك يجلس أمام شيخه كباقي الطلاب ، وينافسهم في الحفظ والمراجعة ، يسبقهم مرةً ويسبقونه أخرى .. بينما بعض المشرفين ينأى عن المشاركة - من باب الكسل غالبًا - ويختار تمضية الوقت بالأحاديث الفارغة والجلسات التي لا تغني ! يجلس في المكتب المخصص لإدارة الدورة من بعد الفجر حتى الثامنة والنصف صباحا ، يحتسي القهوة ويتبادل الحديث مع كلّ غادٍ ورائح !

قد يقول البعض : ولماذا يحضر من الأساس ؟؟ والجواب : أنه مكلّف بمرور بعض الطلاب من وإلى الجامع ولذلك يحضر ! لاشك أنه مأجور ، لكن ماذا لو جمع بين الحسنيين ؟!؟

> هذه قناعتي ..

وعلى ذكر القرآن .. عندي كلامٌ أردده في نفسي كثيرًا ! وقبل أن أتكلم به .. لابد أن أبيّن بعض الأمور وبيبانها أرجو أن يكون لكلامي أثرٌ أقوى !

أنا معتنٍ جدًا بقضايا الحفظ والاتقان ، ولي معها تجارب لا بأس بها ، وهذا الاهتمام أسبغته على مَن تحتي من الطلاب ؛ حيث تولّيت ملف اللجنة فترات طويلة ، ووقفتُ على كثيرٍ من الحالات والقدرات ، ولم أكتفِ بالمتابعةِ والإشراف من بعيد ، بل مارستُ التدريس مدةً طويلة فازددتُ قناعةً ببعض الأفكار التي كنت أهمس بها إلى نفسي ! وعليه .. فالكلام الذي سأقوله الآن هو عصارة تجربة في هذا المجال ، أختصره في هذه النقاط :

١.تقويم التلاوة وتصويبها أولى من الحفظ .. فبعض الطلبة يعسر عليهم الجمع بين التلاوة الصحيحة والحفظ ، فإذا تعارضا فالأول أولى ، ومَن بنى حفظه على تلاوة ضعيفة بنى على أساسٍ خرِب .

٢.من شقَّ عليه الحفظ مشقّةً حقيقية فلا يُطالَب به ، ويُشغل ببرنامج للتلاوة بدلًا من إشغاله بما لا طاقة له به .

وهل يُستبعد ؟؟ الأصل لا .. أرأيتَ لو أن طالبًا فيه عرَجٌ ركّبه الله فيه هل من المقبول أن يُبعد لأجل ذلك ؟؟ اللّٰهُمَّ لا ، فكذلك مَن في ذاكرته آفة ! فإن قيل : أنا أشترط في حلقتي أن يشارك الكل في الحفظ ولو بالقليل ، أو قيل : لو لم يحفظ لاجترأ الكسالى وتظاهروا بضعف الذاكرة فأهملوا الحفظ . أقل لك : حينها تكون المسألة أمرًا اجتهاديا ، مع مراعاة الحكمة في التخلص منه ، تخلص منه دون ألم !

٣.الإتقان أولى من الختمة ، بمعنى .. لو جلس الطالب طيلة أيامه مع الحلقة - بل طيلة عمره - لا يحفظ ولا يراجع سوى خمسة أجزاء ، يعاود تكرارها كل حين ، لكان خيرًا له من مطاردة ختمةٍ ذات لذّة لحظية ، والواقع أن كثيرًا من الخاتمين ليسوا حَفَظَةً ولا متقنين ، مجرد دعاوى !

› الضخّ المذموم ..

وعلى ذكر الدورة الصيفية .. دعوني أنتقدُ أمرًا قد تقع فيه بعض المجموعات كما وقعنا فيه من قبل ! وكلكم يعلم أن التأمل في تجارب الآخرين وإدراك مكمن الخلل فيها خيرٌ من العودة إلى نقطة الصفر وتكرار الأخطاء (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا ...) .

كان عندنا في عطلة الصيف رحلتان ، رحلةٌ في أوّله (بعد الاختبارات النهائية) لمدة خمسة أيام ، ورحلةٌ في وسطه (نهاية المركز الصيفي وتكون تابعة للمركز) لمدة سبعة أيام أو تزيد .. وكان عندنا برنامجان رئيسيان : الدورة القرآنية الصيفية فجرًا ، والمركز الصيفي مساءً .. بالإضافة إلى كون بعض المشرفين مرتبطٌ بالدراسة الجامعية (ترم صيفي) ! فتأمل هذا الضخّ الذي لا يُطاق !! بل أدركتُ بعضَ المشرفين وهو يأخذ الطلاب

من بيوتهم فجرًا ليذهب بهم إلى الدورة القرآنية ، فإذا دخل المسجد انزوى في المصلى الخلفي ليأخذ قسطه من النوم استعدادًا للترم الصيفي ثم المركز الصيفي بعد ذلك ..!

كان من المفترض - وهو ما أدركناه وتداركناه أخيرًا - أن يكون الأمر موزونًا بشكلٍ يجعلنا نستفيد من الصيف دون إشقاقٍ على المشرف ولا على الطالب ، حتى الطالب رغم تفرّغه إلا أنه يجد عنتًا مع هذا الضخّ المتواصل ، وقد نجحنا في ذلك نجاحًا لا بأس به رغم أننا تخبّطنا كثيرًا ولم نستطع صياغة خطّةٍ محكمة تكون لنا سبيلًا في كلّ عطلةٍ صيفية ، ولعل انضمام رمضان إلى أشهر الصيف ساهمَ في تعتيم الرؤية ، لكن لا مانع من ذكر بعض الطرق التي سلكناها في سبيل الخروج بصيفيّةٍ مفيدة دون كَلَفَة .. (وما سأذكره من النقاط ليس خطة ممنهجة ، بقدر ما هو تعاملٌ مع كل صيفية بما يتيسر أو بما يناسبها) ..

- عمدنا إلى تقليل أيام المركز الصيفي من خمسة أيام في الأسبوع إلى أربعة، وذلك بالتنسيق مع إدارة المركز ، وصارت رحلة نهاية الأسبوع (الخاصة بالحلقة) في اليوم الخامس ، أما في السابق فكان المركز خمسة أيام والرحلة في اليوم السادس ! وبهذا التعديل .. يتفرغ المشرف والطالب يومين في الأسبوع بدلًا من يومٍ واحد .. وهذا تقدُّمٌ جيّد !

- حرصنا على الاستعانة بالمشرفين المنقطعين في كلّ ما يمكن أن يخفف العبء عن المشرفين العاملين (المرور - صناعة البرامج - القيام ببعض الأعمال الإدارية ...) ، وقد وجدتُ أن المشرف المنقطع لا يمانع في العمل لمدة يسيرة كشهر ونصف ، وشهرين ، ووجدتُ أن وجودَه يلطّف الجوّ بصفته وجهًا جديدا .

- بعد شدّ وجذب .. قررنا بعد سنوات أن ننقطع عن المراكز الصيفية وأن نتركها بالكليّة وأن نكتفي ببرنامج خاص تقيمه الحلقة للطلاب وتشكّله في القالب الذي تريد ، وتبيّن

لي فيما بعد أن هذه الخطوة كانت خطأ فادحًا تجرعنا مرارته زمنًا ليس باليسير ؛ ذلك أن العبء زاد على المشرفين بدلًا من تخفيفه؛ فهو يحتاج إلى جهد مضاعف في تنفيذه بخلاف المركز الصيفي حيث وفرة المشرفين .. وكل مشرفٍ يسدّ نقص صاحبه ، وأيضًا .. ساهم البرنامج الخاص بجعلِ طلاب المجموعةِ منغلقين على أنفسهم ، وهذا يورثُ الملل بخلاف المركز الصيفي حيث تشاركك مجموعات أخرى .

- مع الخطوة أعلاه .. ونظرًا لطول وقت العصر في الصيف ، قررنا نقل الدورة القرآنية من الفجر إلى العصر ، والاكتفاء بثلاث ساعات - أو أقل - بدلًا من خمس ساعات ، ويبدأ البرنامج الخاص من بعد المغرب إلى الساعة العاشرة والنصف .

- ومعها أيضًا .. ألغينا الرحلة الختامية التابعة للمركز الصيفي ، واكتفينا برحلةٍ واحدة بعد انتهاء الاختبارات النهائية في التعليم العام ، مع تمديد مدتها إلى سبعةِ أيام .

- ظهر عاملان جديدان أثّرا كثيرًا في مسيرة برامج الصيف ، وهما : أولا : اقتناع الجميع - طلابًا ومشرفين - بفشل فكرة البرنامج الخاص وعدم جدواها بعد سنوات من التجربة ، ثانيا : انضمام رمضان إلى أشهر العطلة .. مما يعني ضرورة إعادة النظر في الخطة البرامجية ، فكانت النتيجة نقل الدورة القرآنية إلى رمضان ثم تقليص عدد أيام البرنامج الخاص المقام قبل رمضان ، فوصل في بعض الأحيان إلى يومين في الأسبوع .. مع تفاعل فاتر !! وفُتِح للطلاب مجالٌ لمن أراد المشاركة في مركزٍ صيفي ، وكنا نعينهم على اختيار المركز المناسب مع متابعتهم وتشجيعهم ! ونظرًا لوقت الفراغ الكبير قبل رمضان فقد تم الاعلان عن حلقةٍ اختيارية لمن شاء المشاركة . وفي آخر رمضان كانت تقام رحلة للعمرة بحسب استطاعة المشرفين وتفرغهم .

و أخيرا .. فالمطلوب هو الموازنة دون الانحراف إلى الفشل الذي وصلنا إليه .

› والضّحى ..

من الأفكار الجميلة التي طبقناها .. إقامة حلقة قرآنية اختيارية ضُحى الخميس (قبل تغيير نظام الإجازة) ! كان مسمى البرنامج "ضحويات" ، وكان يبدأ من الساعة التاسعة صباحًا وينتهي قُبيل الظهر .. وكان التفاعل معه ممتازًا ومشجعًا على الاستمرار ، وقد يراجع فيه الطالب أكثر مما راجعه في الأسبوع كاملًا ! وكانت هذه الحلقة قبل ذلك تُقامُ فجرَ الخميس – قبل نظام العطلة الجديد - ، لكننا وجدنا التفاعل معها ضعيف ؛ بسبب حرص الجميع - طلابًا ومشرفين - على أخذ حقهم من النوم بعد فجر الخميس ، لا سيما وأن يومَ الأربعاء مشغولٌ ببرنامجٍ لا ينتهي إلا بعد العاشرة ليلاً ، فلما أدركنا ذلك نقلنا الموعد إلى التاسعة صباحا فكانت فكرة ناجحة باقتدار .

› دواهي

بعضُ تصرفاتك تربّي أتباعك على التحزّب - وإن كان دافعها حسنًا - ..

لما كنتُ طالبًا في المرحلة الثانوية كان في المدرسةِ جملةٌ كبيرة من طلاب الحلقات ، تستطيع تمييزهم بشكل الهندام وهيئة اللباس ، وبالألفاظ والمصطلحات المتداولة ، وأوضح من ذلك .. أنهما كانوا دائمًا من أركان جماعات النشاط المدرسي (التوعية - المنتدى - النادي ...) ، فبمجرد أن تعلم أن هذا الطالب عنصرٌ فاعل في جماعة كذا .. تعلم أنه من شباب الحلقات ! وكان لهؤلاء الطلاب احتكاكٌ ظاهر ببعض المدرسين المستقيمين ، بل كان لهم صلاتٌ ببعض هؤلاء المدرسين خارجَ أسوار المدرسة .. لكون الطالب منخرطًا في حلقةٍ يُشرِف عليها هذا المدرس بشكل كليّ أو جزئي ، وعليه .. فالطالب تلميذٌ له صباحًا ومساءً ! وبسبب هذا الاحتكاك المستمر تنشأ أحيانا علاقةٌ مبناها على التعصب والتحزب ، وقد رأيتُ من ذلك صورا .. فأذكر أن بعض المدرسين "المستقيمين" كان يسعى في تخليص تلامذته من العقاب المقرر عليهم ؛ لأنهم من أركان

جماعته في الصباح (التوعية - المنتدى ...) أو من أفراد حلقته في المساء ، وهذا مذمومٌ إذا كان بهذا الدافع ، ويتأكد الذم حين تكون هذه "الفزعة" بمحضَرٍ من طلاب آخرين تقررت في حقهم العقوبة نفسها دون أن يتحرك لهم كما تحرك لصاحبه ، وقد حصل للأسف !!! بل حصل مرةً أن أحد المدرسين المتحزبين سأل طالبًا من أفراد حلقته في الفصل أمام الطلاب سؤالا يتعلق بالمادة التي يدرّسها، فلم يُجِب الطالب جوابًا صحيحا، فأخذ الأستاذ يرقّع له ترقيعًا أعوجا ، فتأفف أحد الطلاب من هذا الصنيع .. فشعر به المدرّس فأخذ يبرر بتكلّفٍ ترقيعَه المُتكلَّف ، وما زلت أذكر عبارته المخجلة ترنّ في أذني حين قال للمتأفف : (هؤلاء هم أهل السبق في الآخرة ألا يكونوا أحق بالسبق في الدنيا ؟) ليته لم يقل !!

› البحث عن الكنز ..

من الأفكار المبتكرة والبديعة التي ظلّت مخزونةً في الذاكرة.. فكرةٌ كان عِمادُها الطلاب !

مما اعتدناه أننا نقوم في بداية كل فصلٍ دراسي بتقسيم الشباب إلى مجموعات (أُسَر)، تكفّلت إحدى المجموعات بتقديم برنامجٍ مختلف آخرَ الأسبوع ، وتحديدًا قبل الانطلاق إلى الاستراحة .. اجتمعنا بعد العصر مباشرة - كسيارات - في مكانٍ واحد لنأخذ التوجيهات من مقدمي البرنامج ، فكانت الفكرة تقوم على توزيع مخططٍ لكل سيارة لا يمكن الوصول إلى الاستراحة - مجهولة المكان - إلا من خلاله ! شيء يشبه لعبة البحث عن الكنز - لمن عرفها - لكن عن طريق السيارات ، والكنز المستهدف هو الاستراحة ، وأول الواصلين تنتظره هدية هناك !

ليتك ترى جنونهم ! سيارتنا لوحدها مرّت بعدّة مراحل .. أول الأمر كانت الشفرة تقول (اذهب إلى التموينات الفلانية في الحي الفلاني) ، ذهبنا فأعطانا صاحب البقالة كيسًا فيه زجاجات ماء بعدد الموجودين في السيارة وفي الكيس شفرة جديدة ، بعد أن قمنا

بتفكيكها وجدناها تقول (اذهب إلى البنك الفلاني على الشارع الفلاني وابحث في خرطوم إطفاء الحريق الموجود في مواقف البنك) ، وصلنا للبنك واتجهنا للمواقف الخلفية حيث خرطوم الحريق ، وطال البحث حتى عثرنا على الشفرة الثالثة ، وبعد تفكيكها توجهنا إلى الهدف الجديد .. وفي الطريق مررنا بمجموعةٍ كانت شفرتها مخبأةً في أحد الجوامع الشهيرة ! وهكذا خمس سيارات ، لكل سيارة مجموعة من الشفرات تؤدي إلى الهدف ، جهدٌ ليس بالهيّن .. استمرّ البرنامج حتى وصل الجميع إلى الاستراحة بطريقةٍ جديدة ومبتكرة .

الفكرة محلّقة وجميلة لكنها تحتاج إلى ضبط .. أعني : أنا تحرّجتُ مثلًا من دخول المواقف الخلفية للبنك ثم الهجوم الجماعي - من فرط الحماس - على خرطوم إطفاء الحريق ! كأنك في مداهمة يا رجُل !!! إحدى الشفرات مثلًا كانت مخبوءةً في حوض زراعي على رصيف يحيط بالجامعة وعلى شارع عام .. توافقنا مع سيارة أخرى كانت شفرتها في المكان نفسه !! تخيّل قرابة ثمانية ينزلون دفعةً واحدة في لحظة واحدة أمام المارّة للبحث عن شيء يجهله الناس في حوض زراعي ! ما سكنت نفسي لهذا .. عمومًا ، يمكنك تنفيذ الفكرة بشكل منضبط أكثر ، وهي في الحقيقة تستحق التجربة والتعب .

> أمير بلا إمارة ..

في رحلتنا إلى "حائل" طلبَ مني مسؤول الحلقة أن أكون الأمير ، وأيّده على ذلك بعض المشرفين .. فتوكلتُ على الله وعملت بمقتضى هذا الطلب ، لكنني اصطدمتُ بعقبةٍ كؤود ..

في "حائل" .. لم أكن أميرًا رغمَ أنني الأمير !! شيءٌ من المركزية مارسه عليّ مسؤول الحلقة بصفته الأكبر سنًا ! قد يتجاوزُ المرءُ مثل هذا في سبيل جمع الكلمة .. لكن ماذا تفعل حين يحصل التخبط في القرارات أمام الطلاب بسبب هذه المركزية ؟؟ وقفنا مرةً

بالحافلة عند محطةٍ لتعبئة الوقود ، فطلب مني الطلاب - بصفتي الأمير - أن أسمح لهم بالنزول إلى "البقالة" ليتبضّعوا منها ما يتيسر ، فأذِنتُ لهم ! ثم تفاجأت أن صاحبي المسؤول قد ردّهم على أدبارهم مؤكدًا أنه لا حاجةَ لذلك !!! أما أنا فابتلعتُ الموقف رغم الحرج الشديد الذي تلبّسني ، ومثل هذا الموقف كثير .. حتى إنني مرةً كنتُ في اجتماع خاص مع المسؤول في غرفته بالسكن لمراجعةِ خطة البرامج ، فاستأذن أحد الطلاب ودخل ، فتوجّه إليّ بطلبٍ - بصفتي الأمير - يريد تحقيقه ، فبادر المسؤول رافضًا هذا الطلب ، فقال الطالب مستغربًا (أنت الأمير ولاّ هو ؟؟؟) فانظر كيف وصل الحال ! أعترفُ أنني ابتلعتُ كلّ الأخطاء في تلك الرحلة ولم أجابه المسؤول بالطريقة المثلى ولو بعد حين .. وذلكم خطأ ! أقلّ ما في الأمر أن أجابهه فيتفطّن لخطئه ، بل أقل من ذلك أن تبرأ ذمتي بالنصح حتى لو لم يقتنع باعوجاج طريقته .

› زراعة الطمأنينة ..

قبل سفرنا إلى "حائل" بأيام حصَل موقفٌ أرشدني إلى شيءٍ مهم في مسألة استقطاب الطلاب الجدد إلى المجموعة ..

مِن المعلوم أن الأب قد يجد نُفرةً - وكذلك الأم - من انضمام ابنه إلى مجموعةٍ لا يدرك أهدافها ولا يعرف تفاصيل برامجها ، ويتأكد هذا .. حين يكون البيت غيرَ معتادٍ على فكرة "الشباب" بخلاف ما لو كان الأب خرّيج هذه الحلقات مثلًا ، أو لو كان للطالبِ أخٌ سبَقَه إلى مثل هذه التجمّعات المباركة ، ولذلك تجد المحضن يتعب مع البيت المستجد في هذه المناشط .. حرصٌ زائد .. كثرةُ سؤال .. غيابٌ مستمرّ .. تعنّت في بعض الأمور .. إلخ !

الشاهد .. كان لدينا طالبٌ مستجدّ لم يعهد هو ولا أهله مثل هذه المناشط والتجمعات التربوية ، فأخطرني أنه غير متأكد من موقف أبيه تجاه هذه الرحلة البعيدة !! لا يدري

هل سيوافق أم لا !؟ خفّضتُ عليه وطلبتُ منه أن يعرض الأمر على والده ، وبعدها يكون لكل حادثٍ حديث .

جاءني بعد أيام وقال : أبي سيهاتفك ! قلت : لأي شيء ؟؟ ما الذي حصل ؟!! فقال : أطلعته على أمر الرحلة فطلب مني رقم أحد المشرفين فأعطيته رقمك .

انتظرتُ اتصال والده على مضض - وأنا أجد مشقةً مع الطلاب الجدد - إلى أن هاتفني صباح أحد الأيام :

- السلام عليكم ، صباح الخير

- وعليكم السلام ، يا صباح النور ..

- أنت "فلان الفلاني" مشرف ابني "فلان" في الحلقة ؟؟

- نعم نعم .. إلخ

كان من طليعة أسئلته أن سألني : (يقرب لك "فلان الفلاني"؟ زميلنا في العمل يشتغل معنا في الدائرة الفلانية) ، أجبتُ مباشرة بـ نعم ، رُغم أن هذا القريب من الأقارب الأبعدين جدًا ولم ألتقه في حياتي إلى هذه اللحظة .. لكنني أسمع عنه وأدرك أنه من أقاربي !

مباشرة اطمأنت نفسُ والد الطالب .. وأخذ يحفّز ويشجّع ويسأل عن الاستعدادات ويعرض خدماته ، وفي خضمّ حديثه قال : (هذا ابن عمك "زميله في العمل" عندي في المكتب خذ كلّمه) !! فهاتفته .. وراح يسأل عن والدي بالاسم وبعض أقاربي وأنا والله لا أعرف منه سوى اسمه وهو لا يعرف مني سوى اسمي ، ثم قال لي متفاعلًا : (أنا أعرف حايل زين ، زرتها كثيرا ، روحوا للمكان الفلاني والمكان الفلاني ، هي من أجمل الأماكن هناك) وهكذا قضيتُ المكالمة في حديثٍ متفاعل عن الرحلة من دون سابق

تخطيط ! وكسبنا الطالب في الرحلة دون أدنى تردد ، بل صار بعد سنوات من العناصر الفعّالة في المحضن ، وصارت له جهودٌ تُشكَر .

والمستفاد مما جرى .. أنه إذا انضم إلى المجموعةِ طالبٌ جديد لا عهد لأهله بمثل هذه المحاضن فابحث عن قراباته في المحضن - ولو كانت بعيدة - وفعّلها في الربط بين المحضن والأهل ، فهذا دواءٌ مُجرَّب يحصل به الشفاء وتزداد به ثقة الأهل بالمنشط ، وقد حصل هذا مع حالات عديدة . ولعلي أتكلم في خاطرةٍ قادمة عن بعض الأساليب المُثلى في تعزيز ثقة الأهل بالمحضن .

› أيّهم أولى ؟

وبما أنني تكلمتُ عن الطالب الجديد .. فهنا حديثٌ عن الأولويات !

ماذا لو تقدّم إلى محضنك / حلقتك مجموعةٌ من الطلاب كلهم يريدون الانضمام إليك وطاقتك الاستيعابية لا تحتمل غير طالبٍ واحد ؟! ماذا أنت صانع ؟! أما أنا .. ففي الظروف الطبيعية سوف أنظر إلى أمرين :

١.هل هو - أي الطالب المتقدم - أكبر إخوته ؟!

٢.هل بيئة الطالب تعرف هذه المناشط ؟ هل بيته يفهم ويدرك معنى انضمام الابن إلى محضن تربوي ؟؟!

باختصار .. أنا أُفضّل الطالب إذا كان أكبر إخوانه على الطالب الذي له إخوةٌ يكبرونه ؛ ذلك لأن صلاحَ الكبير سببٌ في صلاح مَن تحته ، وفي صلاحه تخفيفٌ للشرِّ إن كان في منزله شرّ ، وهذا ملموس .

و أيضًا .. أُفضِّل الطالب الذي لا عهد لأهله وبيته بمثل هذه المناشط على الطالب الذي تشرّبَ أهله بها ؛ ذلك لأنه يفتحُ بابَ خيرٍ في محيطه بدلالتهم على هذه المناشط ، وقد حصل ..

› درسٌ من حائل !

في "حائل" .. خلدنا مرّةً إلى النومِ متأخرين ، ولم نستيقظ إلا بعد طلوع الشمس ..! كنتُ أقول للشباب وأنا أوقظهم على عجلٍ لتدارك الموقف : إذا اجتمع اثنان أو ثلاثة في المصلّى أو أكثر فليصلوا .. لا ينتظروا البقية ؛ حتى لا تتأخروا عن الصلاة أكثر مما تأخرنا ، فصار كلما اجتمع اثنان أو ثلاثة صلوا لوحدهم دون المتأخرين ، ثم يأتي بعدهم اثنان وثلاثة فيصلون .. وهكذا ! وهذا التوجيه مني خطأ ، والصواب أن تصلي المجموعةُ معًا ولو حصل بعض التأخير، مع أداء السنة القبلية في موضعها (قبل الصلاة) ، ودليل ذلك ما رواه أبو داوود عن عمران بن حصين قال : [كان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في مسير له فناموا عن صلاة الفجر فاستيقظوا بحرِّ الشمس ، فارتفعوا قليلا حتى استعلت ، ثم أمر المؤذن فأذن ، ثم صلى الركعتين قبل الفجر ، ثم أقام المؤذن فصلى الفجر] وذكر شيخ الإسلام - رحمه الله - أنه يُستثنى من الفورية في قضاء الصلاة : تأخيرها لغرض صحيح كانتظار رفقة أو جماعة للصلاة .

والجدير ذكره هنا .. أنه من أخطاء المشرفين في مثل هذه الرحلات اعتمادهم على شخص أو شخصين في إيقاظ المجموعة ، لابد من الاعتماد على عدد كافٍ يضبطون المنبّه على وقت الصلاة ، ولابد من الاعتماد على رشيقي النوم ، فهو من فعل الأسباب .

› وللإيقاظ فكرةٌ جبّارة ..

لن تشعر باللذّةِ كما ستشعرُ بها حين تهتدي إلى فكرةٍ تُعالِج بها مشكلةً تُؤرق المحضن .. كُنّا ذاتَ صيفٍ في "أبها"، وكنا نعاني من مسألةِ إيقاظ الشباب لصلاة الفجر، نجدُ في

كثيرٍ منهم ثُقلًا عجيبا، لا أتذكر لمَ كانوا كذلك ..؟ ربما كنا ننام متأخرين .. كنتُ وأحد المشرفين نتولى مهمة إيقاظهم فردًا فردا .. وكان الجهد يبلغ منا مبلغًا شديدا، إلى أن اهتدينا إلى فكرةٍ قلبَتْ الأمر رأسًا على عقِب، وما إن طبقناها حتى رأينا عجبا ..

فمن المعلوم .. أن الطلاب في مثل هذه الرحلة يُقسَّمون على مجموعات، وكل مجموعةٍ تتولى عددًا من المهام بحسب ما يراه أمير الرحلة ومشرفوها، فاخترنا أن نضيفَ مسألةَ الإيقاظ لصلاة الفجر إلى مهام المجموعات الطلابية، بحيث تُلزَم المجموعة كاملةً بالاستيقاظ – وعدد أفرادها لا يقلّون عن سبعةٍ آنذاك – قُبيل الصلاة، وتُكلّفُ بإيقاظ الجميع – مشرفين وطلابا – في مُدّةٍ وجيزة قد لا تتجاوز العشر دقائق، ومن أخلَّتْ بذلك من المجموعات عوقبتْ بالحسم من درجات التقييم العام، وبمجرّد التطبيق رأينا نجاحًا للفكرةِ باهرًا، فاعتمدناها بعد ذلك دون تردد . مع التنبيه على ضرورةِ اعتماد المشرف ضبط منبهه على وقت الصلاة من باب الاحتياط .

› البيت المستجدّ ..

حين تكون فكرة البيت عن المحضن = صفر ، فأنت أمام مهمّةٍ دعويّةٍ كبرى ..

إذا انضم إلى مجموعتك طالبٌ جديد من بيتٍ يملكُ خلفيةً جيدة عن هذه المحاضن والأنشطة التربوية فإن طريقه سيكون مُعبَّدًا بالورود مفروشًا بالرياحين ، بخلاف الطالب الذي يأتيك من بيتٍ لا يعرف شيئًا عن هذه المناشط .. حينها تأهّب للمهمة الجديدة واحتسب عند الله أن تكونَ داعيةً بحُسنِ تصرّفك ، لعل الله يفتح على يدك قناةً جديدة تمدُّ هذه المناشط بما يتيسر من الأبناء والأقارب ! أعني .. احرص أن تتصرف مع البيت الذي لا يعرف شيئًا عن هذه المناشط التربوية بمزيد حكمةٍ وحرص؛ كي تكسب الدعوةُ بيتًا جديدا !

ولا يخفاك .. أن البيت المتمرس على هذه المناشط (من خلال الأب أو الأخ أو أي قريب) لا يتردد مثلًا في السماح للابن بالمشاركة في رحلة سفرٍ لمدة أيام بناءً على الخلفية السابقة التي يملكها عن هذه المحاضن ، وهذا قد لا يتيسر مع بيتٍ آخر خلفيته صفر ، ولذا .. أذكُرُ هنا بعض النقاط التي يحسن بك التركيز عليها حتى لا نخسر البيت الجديد :

١.تعرّف على والده / أخيه الأكبر عن طريق زيارته ، وخيرٌ منه أن تدعوه لزيارتكم والاطلاع على مناشطكم .

٢.الوضوح أبلغ الراحة .. عرّف الطالب باسمك ووظيفتك / تخصصك الجامعي ومكان سكنك ، عرّفه ببقية المشرفين / دراستهم / وظائفهم ، عرّفه بالطلاب ، وهو بدوره سينقل هذا إلى والده .

٣.إن كان طالبًا في المرحلة المتوسطة فمن المهم أن يكون رقمك عند والده ، وهو مهم كذلك لطالب الثانوي ، لكن الأول آكد .

٤.زوّد الطالب بخطتكم البرامجية دون تفصيل - مع الأهداف إن أمكن - وليكن لبيته (أبيه أو أمه) نسخة .

٥.إن كانت مجموعتكم تعتني بتوثيق البرامج فأغث الطالب ببعض التقارير السابقة مقروءة أو مرئية .

٦.إن كانت الحلقة تعتمد نظام المرور في البيوت .. فابحث عن مشرف له قرابة بالطالب الجديد ولو كانت قرابةً بعيدة وأوكل إليه مهمة مروره ، فإن لم يكن ثمة قريب فابحث له عن مشرف من أبناء بلدته (تمير .. عنيزة .. إلخ) فإنها تعمل في النفس عملًا ! والهدف هنا ليس الطالب ، بل الهدف والده .. فإن النفس بطبيعتها تطمئن إلى القريب وإلى ابن البلدة ، وقد جربت هذا فوجدته نافعًا غاية النفع .

٧.بعض الآباء يحب العمل الرسمي المنضبط .. كوالد "عبدالرحمن" كانت نفسه لا تطمئن إلا بوجود ورقٍ رسمي من الجامع يفيد بمكان وزمان الرحلة ، فكنتُ أعطي "عبدالرحمن" نسخة كل أسبوع من أجل رحلة آخر الأسبوع ، وما دام الأب لا يطمئن إلا بمثل هذا .. فليكن !

› التعلق الناخر ..

مما لا يُحمَد .. أن تكون قوة علاقة المشرف بالمشرفِ سبيلًا إلى توهين المحضن وإضعافه وزرعِ بذور الشقاق بين المشرفين، لك أن تمنح المشرف الفلاني مزيدًا من الحبّ والاحترام والتقدير، لكن هذا لا يعني أن تجعله يفكر ويقرر بدلًا منك ..

مررتُ بأنموذجٍ غير مريح في زمنٍ مضى كان سببًا في توتير علاقة بعض المشرفين ببعضهم الآخر؛ إذ كان أحد المشرفين المستجدين في العمل الإشرافي يهيمُ بأحد المشرفين الكبار الذين يشاركونه العمل في الميدان، كان يصرّح بهذا الحبّ والتقدير أمام المشرفين ، ويعلّله بأسبابٍ مقبولة .. لكنه كان يتجاوز في اجتماعات العمل فيقول بكل صراحة : (أنا مع أبي فلان في كل قراراته وآرائه ولو لم يقتنع الحاضرون بما يرى) ! هكذا .. بهذا الإطلاق !! أعماه الحُبّ ..

هذه النغمة التي كان يرددها صاحبُنا بشكل متكرر كانت سببًا في نفرة العاملين من الاثنين معًا، ولو تجاوزنا خطأ التقديس لما استطعنا تجاوز ما يمكن أن تزرعه هذه الكلمات في نفوس البقية من حسدٍ أو سوء ظن يقود إلى الشكّ في بعض ما يميلان إليه من الآراء في اجتماعات العمل وأنها أمرٌ بُيّتَ بليل .. وقد يؤدي هذا الخطأ إلى نشوء حزبٍ مضادّ يجابه هذا التحالف البريء ! والخطأ كل الخطأ في الصورةِ التي أوردتُ يحتمله المشرف الأكبر ، الذي كان يتلقى هذا المديح وهذا الإطراء دون أن يحدّ منه .

العمل المؤسسي طويل الأمد خرافة .. نعم .. العمل المؤسسي ذو الأمد الطويل في هذه المحاضن خُرافة، لا وجود له ولا يمكن أن يكون ، قلتُ هذا من قبل .. و ما زلتُ أقوله .. وسأظل أقوله !! و أنا هنا .. أعني العمل المؤسسي المحكم الذي لا يتأثر بغياب فردٍ أو فردين ، لا العمل المؤسسي البسيط الذي يقوم عليه السواد الأعظم من الحلقات ..

العمل في هذه الحلقات يعتمد على الأفراد، هذه هي الحقيقة .. تجد المحضن فيه جملةٌ كبيرة من المشرفين، لكن لو انسحب واحدٌ أو اثنان لاختلّ المحضن كله، وأحيانًا يسقط !

و إذا كانت المؤسسات المادية الربحية تتأثر بتغيّر قادتها سلبًا وإيجابًا .. فمن باب أولى أن تتأثر المنظومات الخيرية بذلك .

المشرفون مهما تقدموا في السنّ .. هم شبابٌ في مقتبل العمر ، لم تخدشهم الحياة بظفرها ، ولذلك يعتمدون في قيادتهم للعمل على مواهبهم أولًا ثم على تجارب الآخرين وتوجيهاتهم ثانيا، والعمل المؤسسي يتطلب - غالبًا - خبرةً كبيرةً في مجال العمل لا يمكن توفرها في هؤلاء الشباب ..

ثم .. هم يعملون احتسابًا دون أن يتقاضوا أجرا ، وهذا يصعب معه التضييق في المحاسبةِ والعقاب حال الخطأ، وهذا الاحتساب يُضعف فكرة العمل المؤسسي الصلب في هذه المحاضن .

وعليه .. فإن من أوفَر نعم الله على المحضن أن يتعاقب على قيادته جمعٌ من القادة الموهوبين .. مما يعني ازدهاره أمدًا طويلا .

› إذا استوى .. رحل

قال لي معاذ مرَّةً : (مشكلتنا .. ما إن ينضج منا أحد حتى يرحل !) كلام جميل وواقعي .. وهو يقصد مجتمع الحلقات التربوية عمومًا ولا يقصد حالتنا لوحدها ! يبدأ أحدنا في العمل الإشرافي جديدًا على هذا العالم، وكلما تقدم به العمر في هذا المجال ازداد عوده استقامةً وصلابة، حتى إذا تجذّرت عروقه في أعماق المحضن .. اقتلع نفسه ورحل !

لا إشكال .. غالبًا أعذر من يرحل؛ لأنه لا يرحل من فراغ ! لكن العتَب يطال الراحلين متى ما أحجموا عن تغذية هذه المحاضن بخبراتهم وسابق تجاربهم ، وأيضًا .. يطالهم متى ما قرروا الانزواء والانكفاء على أنفسهم دون أن يخوضوا حياتهم الجديدة بمشاريعَ تنفعهم وتنفع أمةً مِن ورائهم ولو كان ظاهرها دنيويا .. حتى وإن كانت هذه المشاريع لا تتصل بتجربتهم السابقة في المحاضن، فلا تُطفئ الفتيل ..

› جذّاب ..

بعض المشرفين موهوبٌ وجذّاب ! يستطيع أن يشدّ أنظار الطلاب إليه ، لصّ .. يسرق الأضواء بصخَب .. وأحيانًا بهدوء ! كيف يفعل هذا ؟! بتعامله .. بموهبته "متكلّم مثلًا" .. بذكائه الكبير في تواصله مع الطلاب .. بأي شيءٍ آخر ، لو جمعتَ أحاديث الطلاب فيما بينهم عن المشرفين ، لوجدتَ أن أخانا هذا يستحوذ على أكثر أحاديثهم .. يسيطر على عقولهم ، هذه الجاذبية التي يتمتع به هذا الأخ لها إيجابياتٌ محمودة وسلبيات منبوذة ، فهي تجعله "يأكل الجوّ" على بقيّة المشرفين العاملين معه فتتخلّق "الغيرة" والحسد في نفوس بعضهم ، والحلّ أن يمنحهم الفرصة .. أن يصنعها لهم .. أن يحتوي غيرتهم هذه بحكمته ! مثلًا : المشرف الذي تشعر منه بغيرة .. امدحه في وجهه أمام الطلاب ، قل : هو خيرٌ مني وأنا أستفيد منه كثيرًا ! صدقني سيخبو ما في صدره تجاهك . وقد أسلفتُ من

قبل : كلما كان حضورك بين الطلاب أقوى وجَبَ أن يكون أثرك المحمود فيهم أجلى وأظهر .

هذا .. وقد يتنافس الطلاب بينهم في الاستحواذ على قلبك أيها المشرف الجذّاب ، فيتقرّبون إليك بما يستطيعون ، كلٌّ يريد أن يكون الأثير في قلبك عليهم ، فإذا علمتَ هذا .. فاعلم أنك أمام اختبارٍ صعبٍ ومرهق ، فاتّزن واعتدل رحمك الله ، ولا يخلُ وجهك لنفرٍ منهم دون البقية، وإلا كنتَ ممن يُذكي العداوات ويفرّق القلوب والجماعات .

› الكنز المهمل

أرأيتَ هذه الأوراق التي تتكدّس في سيارتك وغرفتك ومكتبتك من بقايا عملك التربوي ؟ ألا تدري - أيها الحبيب - أنها كنزٌ و ثروةٌ قبل أن تكون تاريخًا وذكرى ؟ فلماذا إذًا هذا الهدْر ؟! اجمعها واحتفظ بها .. فقد تحتاجها يومًا !

لو استقبلتُ من أمري ما استدبرت ما أهملتُ ورقةً أبدا ، نعم .. عندي "صناديق" حافلةٌ بالكثير ، لكن ما فات أكثر مما بقي .. لن تُعدَمَ مما جمعتَ فكرةً تحييها في منشط آخر ، أو تهديها من يحتاجُ إليها ، هذا الأرشيف العتيق .. قد يحي به الله مجموعةً ميّتة ، يكن لك أجرها ما بقيَت ! بل لو طال عمرك في العمل مع هذه المحاضن .. وأنت ممن يؤرشِف بانتظام ، لما احتجت إلى مزيد جهد في ابتكار الأفكار ، فما معك من الأفكار في الأرشيف يُغني عن كثرة الحرث والتفكير ، وما كان بالنسبةِ لك قديمًا باليًا كان بالنسبةِ لغيرك جديدًا مُبتكرا .

بعدما أنهى "عبدالله" دراسته الثانوية انخرط في السلك العسكري مباشرةً فانقطع عنّا ولم يتيسر له العمل معنا كمشرف جامعيّ ، وهناك .. قرر أن ينقل شيئًا من تجربته "الحلقاتية" إلى الميدان الجديد ، فانضم إلى قسمٍ دعويّ في الكليّة ، واعتمد فيه نظام

"الشباب" من حيث إقامة المناشط والمسابقات ، ورغم صعوبة البدايات .. إلا أنه تجاوزها باقتدار .. بفضل الأرشيف الذي جمعه من المشرفين فيما بعد ، ما إن اجتمعت الأفكار - دون جهد - حتى رسم الخطة ثم انطلق !

أما "أبو منصور" فاستفاد بطريقةٍ أكثر ذكاءً ، فمنذ كان طالبًا وهو يحمل دفتره العتيق الممزق .. فإذا حضر الدرس الثقافي راح يعلق مع الضيف بدقّةٍ متناهية ، فلما صار مشرفًا وحانت لحظة العطاء ، نظر في الدفتر .. فوجده زاخرًا بدروس ثقافية مفصلةٍ على الشباب تفصيلا ، فصار يعيد إلقاءها على مجموعات عديدة دون عناء في التحضير .

يا سيدي .. هَب أنك لا تريد أن تستفيد منها ! ألا تجد للذكرى حلاوةً في قلبك ؟!! أرجوك .. لا تكن فظًّا .

› الصفعة تقوّيك ..

قال لي أبو راكان : (ستتكاثر عليك الصفعات لكنها ستنفعك) فكان كما قال ..

العمل في مقتبل العمر في مثل هذه التجمّعات يجعل وقوعَك في الخطأ واردًا بشدّة ، يتأكد هذا مع تفاوت الطّباع وتباين الأخلاق - مشرفين وطلابا - بالإضافة إلى ضغط العمل وكثافته ، ومع استغراقك في العمل تتوافد عليك ردود الأفعال "الصفعات" تجاه هذه الأخطاء ، ما بين صفعات ناعمة تأخذ شكل النصيحة وما بين صفعات خشنة تأخذ طابع المواجهة .. والموقف المثالي تجاه هذه الصفعات أن تنظر إليها بعين عقلك دون تشنّج أو تصرفٍ غير محسوب العاقبة ، فإن كانت في محلّها فأفِق واستيقظ وصحح خطأك .. حتى وإن كان مصدر الصفعة أحد الطلاب ! حينها .. لن يقف الأثر المحمود لهذه الصفعات التصحيحية في عملك داخل المحضن فحسب ، بل سيمتد الأثر إلى حياتك المستقبلية في بيتك ووظيفتك .

› الأثر الباقي ..

من واقعٍ مُشاهَد .. وجدتُ أن الطالب إذا انسحب تبقَى معه بقايا من أثرِ المحضن ، وهذه نعمةٌ تستوجب الشكر .. يعتاد مع المحضن على أذكار أدبار الصلوات أو أذكار المساء أو السنن الرواتب .. إلخ ، فتبقى معه زمنًا طويلا ، وهذا الأمر يجب أن يجعلنا جادّين في تربية الشباب منذ اللحظةِ الأولى دون تراخٍ أو تواكل ، وأن نستثمر كلّ موقفٍ أو حدَث في توجيههم وتنشئتهم تنشئةً ربّانية .

› التربية بالحدَث ..

التربية بالحدَث .. نمطٌ فعّال من أنماط التربية ، وهو أوقع في نفس المتلقّي من النمط المعهود "الوعظ المباشر" ؛ حيث يربط المتربّي في ذهنه بين شيءٍ مُشاهَد وكلامٍ مسموع ، وهذا أدعى للاعتبار وطول النظر ..

وهو قبل ذلك أسلوبٌ نبويّ حاضرٌ بقوة في سيرة الحبيب - عليه الصلاة والسلام - ، ومن ذلك :

ما رواه البخاري ومسلم عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال : قدم على النبي - صلى الله عليه وسلم - سبيٌ، فإذا امرأة من السبي تحلّب ثدياها تسعى، إذ وجدت صبيًّا لها في السبي، أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال لنا النبي - صلى الله عليه وسلم - : (أترون هذه طارحة ولدها في النار؟) قلنا : لا وهي تقدر أن لا تطرحه، فقال : (لله أرحم بعباده من هذه بولدها) . فهنا حصَل حدَث .. فاستثمر النبي - صلى الله عليه وسلم - هذا الحدث في التوجيه . ومثله :

ما رواه البخاري عن جرير بن عبد الله البجلي - رضي الله عنه - ، قال : كنا جلوسًا ليلةً مع النبي - صلى الله عليه وسلم - ، إذ نظر إلى القمر ليلة البدر، فقال : (إنكم سترون ربكم يوم القيامة، كما ترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته فإن استطعتم ألا تغلبوا

على صلاة قبل طلوع الشمس، وصلاة قبل غروبها، فافعلوا . ثم قرأ: " وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ") .

وما أكثرَ الأحداث التي يمكن للمربّي أن يعلّق عليها بما يناسب ، وأن يربط بينها وبين موعظةٍ تَغرِس في النفس غرسا .. فمما يمكن التعليق عليه مثلًا : حادث مروري - شاب مجاهر بمعصية في الشارع "يرفع صوت الأغاني مثلا" - عامل نظافة مُنهك - شخص متهور في قيادته - رجلٌ من جماعة المسجد الذي تمارس الحلقة فيه نشاطها يمكث في مصلاه زمنًا طويلا قارئًا وذاكرا .. إلخ

وهناك أحداثٌ تحصل بشكلٍ غير منتظم سواء داخل الحلقة أو في محيط المجتمع أو في جانب السياسة والفكر .. فيحسن التعليق عليها في حينها بما يناسب ..

هذا .. وفي كلٍ لابد من الحديث عن علم ، ولا يعيب الإنسان أن يقرأ ويسأل عن التوجيه الشرعي والتربوي الصحيح للحدَث قبل أن يبثّه إلى طلابه ، فإن لم يعلم فليتسلّح بـ : لا أدري .

› لا ضرر .. ولا غرر ..!

وبمناسبةِ الحديث عن التربية بـ الحدَث .. فكلنا نعلم أن مِن الأحداث ما قد يضّر لو تحدثنا عنه ، لا سيما في الجانب السياسي ، والطريقةُ المُثلى أن يكون الحديث عنها بأسلوبٍ عامٍ غير مُباشِر ، والقاعدة الذهبية : أن السكوت عن قول الحقّ خيرٌ من التكلّم بالباطل ! فإن استطعتَ أن تقول الحق دون ضررٍ يلحق بك أو بالمجموعة فقُل ، وإلا فلا تتخوّض في الباطل فتهلك وتُهلِك .

› التربية بالقدوة ..

التربية بالقدوة .. وهو النمطُ الذي يُحدِثَ في النفسِ أثرًا دون صخَبٍ ولا ضجيج !

كنتُ مرّةً مع "أبي محمد" في سيارته متجهين إلى الجامع ، وفجأة .. توقّف بسيارته جانبًا ثم ترجّل منها ، أخذ يقطع الشارع العام حتى انتصف فيه ، انحنى إلى الأرض ورفع صخرةً كانت تؤذي المارة ، ثم رمى بها في المكان المناسب .. ثم انطلقنا من جديد دون أن يتكلم بحرفٍ واحد ! هذا المشهد رغم ما مضى عليه من زمنٍ إلا أنه ما زال مغروسًا في ذاكرتي ، وما رأيتُ في الطريقِ أذى إلا سعيت في إزالته بفضل ذلك الموقف .

ومثله : قال لي معاذ : كنا مرةً مع "أبي أنس" متجهين إلى المخيم يوم الاثنين ، وما هو إلا أن أذّن المغرب ونحن في الطريق حتى أخرج "أبو أنس" من جيبه تمرات قد لفّها في منديل ، فأكل منها وهو يتخفّى !

هذه المواقف وأشباهها .. مهما تطاول الزمن لا يمكن أن تُنسى بسهولة ، والمربّي الحصيف يكثّف من هذه الجرعات ، ويستثمر كل موطنٍ يمكن أن يقوم فيه مقام القدوة ، وما أكثر هذه المواطن ، والمحروم من حرمه الله .

› المبادرون .. في السنام

وبمناسبة الحديث عن التربية بالقدوة .. يلزمني هنا أن أتكلم عن "المبادرين"، وهم سنام القدوات .. بل هم قدوات وزيادة ؛ لأنهم يجمعون مع الاقتداء السبقَ في العمل .. وبالمثال يتجلّى المقال :

يحصل كثيرًا - خصوصًا في الرحلات - أن يتأخر الشباب عن التوجّه للمصلّى إذا أذّن المؤذّن للصلاة ، فينشغلون بالأحاديث الجانبية .. وقد لا يتحرك كثير منهم إلا بتوجيه

مباشر ، لكن لو انتفض أحدُ الحاضرين أمامهم فبادر وتوضأ ثم توجّه إلى المصلى ليصلي ركعتين قبل الصلاة (بين كل أذانين صلاة) لكان أثره كبيرًا فيهم ، وهذا أمرٌ مُجرّب .

"أبو فهد" .. هذا الرجل الكبير في السن – إزاء الطلاب - كان إذا انتهى البرنامج في الاستراحة أول من يبادر لتنظيف المكان ، وما إن يتحرّك حتى يتحول المكان إلى خليّةٍ نشِطة .. كل الطلاب يتحركون .. يعملون .. ينظّفون ! المُلاحَظ أن طلابه يتأثرون ! كانوا إذا تخرجوا وانتقلوا إلى المرحلة الثانوية ينضمون إلينا في حلقة الثانوي .. فكنا نلاحظ أثر هذا فيهم ؛ إذ نراهم أهل المبادرة الأولى دائما .

› وللرياضي فكرة ..

من الأفكار التي طبقناها في الجانب الرياضي .. وكانت فكرةً ناجحة .. أننا قررنا أن نقيم مسابقات رياضية خفيفة قبل مباريات كرة القدم ، وهذه المسابقة تمتد من عشر دقائق إلى ربع ساعة بعد صلاة العشاء ، كل أسبوع تتكفّل إحدى المجموعات بفكرةٍ مناسبة ، والهدف كسر الروتين وتلطيف الأجواء وامتصاص الحماس .

› كرت أحمر !

ولأننا في أجواء كرة القدم .. فمن المناسب - كما أرى - أن نستبعد الطالب من الملعب لمدة قصيرة متى ما رأيناه منفعلًا غاضبا ، بعض الحماس ضرره أكبر من نفعه .. وقد يصل عند بعضهم إلى التلفظ والإيذاء الجسدي .. فاستبعاده هنا ضررٌ خاص لدفع ضرر عام ، ولعل الإبعاد المؤقَت يرخي أعصابه ويروّض حماسه ، وعليه أن يفهم أن هذا الإجراء لمصلحته ومصلحة المجموعة .. وأفضل من هذا أن يكون هذا الأمر قانونًا مُعلنًا للجميع .

› ويلك .. أقصِر

تجدُ بعض الشباب يعاني من مشكلةٍ صحيّةٍ مزمنة (صعوبة في النطق - عرَج - ضعف في السمع ...) وهذا ابتلاء من الله يبتلي به عباده ، والواجب مراعاة هذا وعدم تعريضهم لمواطن الحرَج ، وأعرف من الطلاب مَن انسحبَ لأجل هذا .. وأبلغ من المراعاة .. أن نعزز ثقتهم في أنفسهم كلٌّ بحسَبه !

ومن الشائع .. التعيير بالسِّمَن ، وهو مذمومٌ ومؤلم ولو على سبيل المزاح ، حتى وإن أبدى الطالب عدم اكتراثه .. وصدوره من المشرفِ يؤلم أكثر من غيره .

› مقلب المقالب ..

في زمنٍ مضى .. انتشرت في حلقتنا فكرة "المقالب" انتشارًا غير منضبِط .. أدّى بعضها إلى نتائجَ لا تسرّ العاقل ! منها أن أحد الطلاب بكى من "حرّ" المقلب ، وكان صادرًا من أحد المشرفين ، ومنها أن أحد المقالب كانت فكرته تقوم على تشكيك الطلاب وضربهم ببعض ، فتوتّرت العلاقة بينهم حتى بعد التصريح بكونه مقلبا !

والحكمة كل الحكمة .. أن لا نُقدِم على مثل هذا ، فهو مما يجلبُ السوء .

› فكرة موءودة ..

من الأفكار التي كنت أطمح إلى تنفيذها ولم يتيسر لي ذلك .. فكرةُ مشروعٍ علميّ جماعي يكون هو مشروع السنةِ كاملة ، يبدأ العمل عليه من بدايتها وينتهي بانتهائها بمشاركة الجميع من طلابٍ ومشرفين ، والهدف منه تحقيق فضيلة (أو علمٍ يُنتَفع به) ! والفكرة تحديدًا أن أقوم بانتقاء سلسلة صوتية (علمية غالبًا) لعالمٍ مُعتبَر أو طالب علمٍ مكين ثم بعد التنسيق معه أقوم بتقسيم العمل على الجميع ليشاركوا في تفريغ المادة ، والغالب أن نصيب كل فردٍ سيكون ضئيلا .. ولذلك لن يكون المشروع ثقيلا ، ثم بعد

الانتهاء من التفريغ ، توكل مهمة الصف والإخراج إلى أهل الاختصاص بعد مراجعة التفريغ النصّي من قِبَل صاحب الشأن ، وأخيرًا يكون النشر .

› أهلَكَ أهلَكَ ..

ولأهلك عليك حق .. والموازنة بينهم وبين برامج الشباب حِكمة ، وعلى المشرفين مراعاة هذا في بناء خطتهم البرامجيّة .. ويكون ذلك بتخفيف ضغط البرامج ليتمكن الأهل من الجلوس مع أبنائهم – مشرفين وطلابا - ، وليتمكن الأبناء من خدمةِ أهاليهم كما فرضَ الله ! ومِن الشطط الذي وقفتُ عليه .. أن أحد الطلاب - بمحضَرٍ من المشرفين - أخذ يعظ إخوانه الطلاب بموعظة غير سديدة .. وكان مما قاله وأكّد عليه أنه إذا حصل تعارضٌ بين برامج الشباب وبين زيارة بعض أقاربك ، فالشباب أولى وآكد !!! هكذا قالها دون أن يعقّب عليه أحدٌ من المشرفين !! بل أدركتُ بعضَ المشرفين إذا اعتذر الطالب عن الحضور بسبب انشغاله مع أهله .. يسعى إلى ثنيَهِ عن ذلك ، ويشدُّ عليه في طلب الحضور إلى الحلقة وتقديمها على مشاغل أهله عند التزاحم !! وهذا جوْرٌ وسوء تدبير ..

فلتكن حكيمًا ومتفهّمًا في هذا الجانب ، ولتكن كصاحبي .. كان يقول دومًا للطالب إذا اعتذر لانشغاله مع أحد والديه أو أهله : (والداك / أهلك .. أولى من الشباب ، لا يشغلنّك عنهم شاغل) . وهذا والله من إعانتهم على الخير ..

والكلام نفسه في ضرورة الموازنة يوجّه إلى المشرفين ، بل هو في حقهم آكد ؛ لأنهم أكثر استغراقًا في العمل .. وهذا ينسيهم واجبات أهليهم ، وما أكثر ما نسمع من والدينا حين يطلبون منا إنجاز بعض الأعمال ونحن نتقاعس قولهم (لو كان الشغل للشباب كان أنجزته) وهذا واقع للأسف ! فأعينوا الطلاب على فريضة البرّ بالوالدين .. وأعينوا أنفسكم على ذلك يرحمكم الله .

› ما هو خيرٌ لك من الترقيع ..

وعلى ذكر ما سبق .. كنتُ أقول للإخوة المشرفين : بقاء الشاب في بيته مع والديه وإخوته خيرٌ من مطالبته بحضور برنامجٍ ضعيف ! فمثلًا : إذا كان مغرب الأحد زيارة - حسب الخطة - ثم لم تتيسر هذه الزيارة ، فلماذا يلجأ بعض المشرفين إلى "ترقيع" الزيارة ببرنامج آخر يكون في الغالب ضعيفا !؟ أليس من الأولى أن ينصرف الطالب إلى بيته ليمكث عند أمه وأبيه بدلًا من برنامج لا يرتقي وهو مع ذلك محسوب على خطتك !؟

› المشرف العمليّ بشرٌ مثلكم ..

سنّةُ الله لا تستثني المشرفَ العمليّ ! يمرُّ بمرحلةِ الحماسِ والتوهّج ثم يعتريه الضعف والفتور على فترات ، حتى إذا تشبّع وارتوى .. ذوى أملوده وجفّ نبعه ، وسلك رحلةَ الشتاء يبحث عن ربيعٍ جديد ! كنتُ لا أفهم كيف لمشرفٍ كان يقضي سحابة يومه في العمل للمحضن أن يذوي غصنه وتيبس أوراقه ثم يُتبِع ذلك بالرحيل !! لم أفهم حتى ذُقت .. وجاء مِن بعدي من لم يفهم حتى ذاق ! هذه سنة الله .. فافهمها حتى تعذُر .

› مراهقة لا خَلاق لها ..

والمشرفُ العملي قد يمرّ بطوْر المراهقة أثناء العمل .. فيميل في بعض العمل إلى الاستعراض ، ويختار العمل بالضجيج والصراخ على العمل بصمتٍ وخفوت ، وقد يتعدّى فيتحدّى .. يقدّم برنامجًا قويًا ولسان حاله للمجموعات الأخرى : (أرونا بأسكم) أو يجدُ عملًا قويًا عند إحدى المجموعات فيعمَد إلى عملٍ أقوى ! وقلّ مَن يسلم من مثل هذا والله المستعان ، فلا بد من تعاهد النية وتصحيح مسارها ، والخسران كلُّه أن تكون أيها المشرف من العاملة الناصبة .. ممن ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا .

› دلّوني على السوق ..

تربية الشباب على الأخذ بالأسباب الماديّة وتوظيف حطام الدنيا للآخرة لا يتعارض مع التربية السليمة على منهاج النبوّة ! الصحابة - رضوان الله عليهم - سافروا واتّجروا وتمرّسوا على الصفق بالأسواق دون أن ينشغلوا بذلك عن بناءِ الروح وترويةِ القلب ، لم يكونوا عاكفين في زوايا المسجد ، ولم يكونوا عالةً على الناس يستجدونهم اللقمة واللقمتين .. بل كان تعاطيهم مع الدنيا أن جعلوها وقودًا يبلّغهم الآخرة ، وتأملوا إن شئتم سيرةَ عثمان وسيرةَ عبدالرحمن بن عوف ..! كنتُ أتمنى فيما سبق من عملي في الحلقات أن أغذّي هذا الجانب في الطلاب عمليًّا - أو في بعضهم - من خلال مشروع تجاري صغير يُنشِئه الطلاب ويكون تحت إدارتهم ومتابعتهم فالمال عصَبُ الدعوة .. لكن لم يشأ الله .

الواجب .. أن لا نهمل أمر الدنيا والأخذ بالأسباب الماديّة مع ضرورة الترشيد والتوجيه .

› كرامة .. وكرامةٌ أخرى ..

انضم إلى مجموعتنا "عبدالسلام" كطالب جديد .. سألتُ من يعرفه عن جوانب يتميّز بها هذا الضيف الجديد ، فأخبرني بأمور .. منها أنه من حفظةِ كتاب الله ، سألته متحققا : حافظ متقن ؟ أم من أدعياء الحفظ ؟!؟ فأخبرني أنه ليس متقنًا .. حينها طلبتُ من أحد الطلاب الحفظة المتقنين ممن يكبرونه سنًا أن يعتني بهذا الجديد .. وأن يهتم به من حيث المراجعة والإتقان ، فوعدني خيرا .. ثم مع مرور الأيام أخبرني المُعتني أن الطالب الجديد ليس جادًا في المراجعة وليس حريصًا على الإتقان ، فطلبتُ منه أن يصبر عليه وأن يتعاهده دون إثقال ولا إملال ، لكن مع الوقت فتَر المُعتني وملّ فأهمل صاحبنا ، وعلى صاحبنا "عبدالسلام" كِفلٌ من اللوم جزاء ضعف جدّيته وقلّة حرصه على تعاهد حفظه .

ثم ماذا ؟! مرّت سنة .. ثم سنتان .. حتى انتبه قلبُ "عبدالسلام" ، واستيقظ من رقدته الطويلة ! هكذا دون مقدّمات .. فانخرط في برنامجٍ ذاتيّ جادّ لمراجعة المحفوظ وتثبيته ، أغناه الله عن المعتنين والمتابعين .. فانطلق انطلاقةً خارقة لا يثني عزمته شيءٌ ، وما هي إلا شهور حتى صار ورده اليوميّ لا يقلّ عن ثلاثة أجزاء مع إتقان عالٍ وصبرٍ لا يشبهه صبر .. أما اليوم فقد تجاوز أقرانه ، بل وتفوق على شيوخه الذين كانوا يشدّون على يده أول الأمر ! فلا لليأس .. إن لله هِباتٍ لا تدركها العقول .

وقريبٌ من ذلك .. طالبٌ كان من أضعف الناس حفظا ، ومِن شدة ضعفه طَالَبَ بعضُ المشرفين بإبعاده ، وحصل خلافٌ طويلٌ حول هذا .. انتهى الأمر إلى الرضا به والصبر عليه ، ثم مضى زمنٌ فإذا به من أفضل الشباب حفظًا ، وأحرصِهم على تثبيت المحفوظ ! لاحظنا هذا التغيّر المفاجئ .. والعجيب أن ضعفه السابق لا يتعلق بضعف الهمة ، بل بضعف الذاكرة .. وهذا أمرٌ مُجمع عليه عندنا ، فكيف استيقظت ذاكرته ؟؟ وكيف تبدّل حاله ؟؟! إن هذا لشيءٌ عُجاب !! بحثتُ الأمرَ حتى وصلتُ إلى طرف الخيط حين جمعتني الصدفة بأخيه الأكبر ، فحكيتُ له ما جرى من أخيه .. وكيف كان ثم كيف أصبح ! وسألته عن سبب هذا التغيّر إن كان يعلم ! فأخبرني أن أخاه - وهو آنذاك في المرحلة المتوسطة - كان يقوم آخر الليل ليصلي ركعاتٍ يراجع فيها حفظه الذي سيقرؤه غدًا في الحلقة ، وكان يواظب على هذا دون انقطاع !

قلتُ في نفسي : لعله صدق مع الله بدعوةٍ في سجدةٍ في جوف الليل .. فحازَ الكرامة الربّانية .

› من خدعك بالله فانخدِع له ..

هاتفني مرّةً مشرفٌ من إحدى الحلق دون سابق معرفة، وأخبرني أن أحد طلابهم سينتقل من حيّ إلى حيٍّ آخر ، وهذا الانتقال يحتّم عليهم الاستغناء عنه - كما قال -

لبعد المسافة بين حلقتهم والحيّ الجديد ، لم تكن المسافةُ بين الطالب وحلقته بعيدة في الحقيقة لكني أجريتُ الأمر كما هو .. طلب مني هذا المشرف أن نقبل الطالب في مجموعتنا نظرًا لقرب المسافة بين جامعنا وبين الحيّ الذي يقطنه الطالب . سألته عن الطالب فزكّاه في الجملة ولا أذكر أنه طعن فيه بشيء ! لم أتردد في قبوله بعد مشورة المشرفين ، ولم يمضِ زمنٌ طويل حتى أدركتُ أن القومَ إنما أرادوا التخلّص من طالبٍ سيئ محتجّين بانتقاله إلى حيٍّ جديد ، وبانَ لي هذا الأمر بيقين مع سوءات مُحتملَة باتت تخرج منه .. وما هي إلا مدّة حتى صرنا ننظر إليه بريبةٍ وحذر ، وصار موضع شك عندنا ، لكننا لم نستطع إبعاده لأننا لسنا على يقين من سوئه .. أو بتعبيرٍ أدقّ .. لسنا على يقين أن منزلته في السوء تحتّم علينا إبعاده ! ومضت الأيام والشهور حتى أتم معنا قريبا من ثلاث سنوات، جرت لنا معه فيها أحداث وأحداث .. إلى أن بلغ الأمر منتهاه ، فاستبعدناه غير آسفين ! فلم هذا الغشّ أيها الرفاق ؟؟! لم ؟؟ لم ؟؟ قد يُقال : لمَ لمْ يتخلصوا منه باستبعاده دون إحالته عليكم ؟؟ أليس هذا أولى ؟؟ بلى هذا أولى .. لكن ضغط الأهل أحيانا والأقارب ومطالبتهم للحلقة بعدم استبعاد ابنهم ، يجعل المشرفين يتخلّصون منه بطريقةٍ هادئة من خلال نقله إلى مجموعةٍ أخرى كما فعلوا معنا .

وقد يُقال : أليس انتقال الطالب إلى مجموعةٍ أخرى قد يغيّر حاله إلى الأحسن ؟! بلى هذا وارد .. لكن إن كان الطالب متلبسًا ببعض الأخطاء - خصوصا ذات الضرر المتعدي - فلابد من تبيينها لمشرف المجموعة الجديدة حتى يتفطّن لها إن قبِل بالطالب ، وإلا فهو بالخيار في قبول الطالب من عدمه - بعد معرفته بحاله - وواجبه أن ينظر في الأصلح لمجموعته إما القبول أو الرفض .

› توريث ما لا يليق ..

من أصعب المهام التي قد يواجهها مشرف المجموعة .. أن يكون أحد المشرفين العاملين معه متلبّسًا بطبعٍ سيئ أو سلوكٍ رديء يؤثّر في الطلاب فينحرفون بانحرافه

كانحرافه !! وردتني مرّةً رسالةٌ من والدة أحد الطلاب تقول فيها - بالمعنى - : [ابني فلان متهوّرٌ في قيادته حدّ الجنون (كان ابنها في الأول الثانوي) وحين أرفض تصرفه هذا وأغضب منه، يقول لي: "هذي سواقة المشرف فلان وما ضرّه" فأرجوكم تداركوا الوضع] لم تكن هذه السيدة الوالدة مبالغة ، فقد كان المشرف الفلاني متهوّرًا في قيادته فعلًا ، ونُبّه على هذا كثيرًا دون أن يرتدع ! وهذا بعض أثره ظهر .. وما خفيَ من أثره قد يكون أعظم ! اضطررنا بعد ذلك إلى إبعاده ؛ إذ تراكمت عليه من قبل عددٌ من الملاحظات .. وكانت هذه الرسالة كالقشّة التي قصمت ظهر البعير .

ولا يغرُرك صمتُ الطلاب .. فإنهم يتأثرون بما لا يخطر على بال ! وأنا أتذكر جيدًا كيف كنا نتأثر ببعض طباع المشرفين ، ومما أذكره أن أحد المشرفين كان مشهورًا بتهوّره في القيادة ، وكان الطلاب -ونحن في المرحلة الثانوية- يبدون فيما بينهم إعجابهم وانبهارهم به ، وبعضهم يُقلّد دون علمٍ ولا بصيرة ، فلنحذر من توريث مُنكَر الأخلاق وسيئ الأمور ..

نحن نحتاج في مسيرتنا التربويّة إلى ترويض أخلاقنا وطِباعنا .. إن لم يكن من أجل أن نسمو بأنفسنا فليكن من أجل الثقة التي أنيطت بنا .

› أفلا تتفكرون ؟

وعلى ذكر السيارات .. هنا موقف :

أحد المشرفين كان متهورًا في قيادته بشكلٍ جنوني .. وكان يغترّ بتفاعل بعض الطلاب معه فيزيد من جرعة الجنون !! وقد تعرّض للكثير من الحوادث المرورية ، حصَلَ أن أحد الآباء رأى قيادته فما تردد في الاتصال بمشرف المجموعة وبثِّ شكواه ! بل إن أحدَ الطلاب كان يرفض الركوب معه .. ووالله ما برئت الذمة بتوليته هذه المهمة ، ولو حصل مكروهٌ آنذاك لطالَ المشرفين إثمٌ وخطيئة ، لكن الله رؤوف لطيف .. يا أخي ما الذي

يضيرك لو تنازلت عن بعض تهوّرك وجنونك ؟! كيف تظن ردة فعل والديْ الطالب حين يقفا على صنيعك ؟! ما هو أثر تهوّرك هذا على الطالب مستقبلا ؟! تفكّر رجوتك ..

› ليالي الجنّ !

(تبون قصص جنّ ؟!) عبارة تنخلع لها قلوب كثيرٍ من الطلاب !! وجدتُ هذا في رحلتنا إلى الطائف .. حين بدأ أحدهم سرد هذه القصص وما شابهها في ليلةٍ كالِحَةٍ مخيفة .. تفحّصتُ وجوه الطلاب فرأيتُ في عيونهم الفزعَ والرهبة ! وكما رأيت .. فقد رأى "أبو فهد" ، فبادرَ وأسكتَ المتحدّث بالطريقة المناسبة .

المشكلة أن بعض الإخوة يتفنّن في اختيار اللحظات المخيفة لمثل هذه الأحاديث .. في الليل .. في البرّ .. في مكان موحش .. إلخ . والثمرة ؟! ترويعٌ لا أكثر ..

› الاستبيان بيان ..

الاستبيان خطوة مهمة لترتيب الأوراق وتصحيح المسار ! في الحقيقة لا أتصوّر أن مؤسسةً من المؤسسات تملكُ أن تستمرّ بشكلٍ صحيح دون أن تفعّل الاستبيان ..

وهذه الأنشطة التربوية أوْلى من غيرها في التصحيح ، فلابد من الاهتمام بالاستبيان مع الانتقاء المناسب للأسئلة ، ولا تخشَ شفافية الطلاب وصراحتهم حال الإجابة ، فإنه ألمٌ يشبه الدواء ، ولا بد من تجرّعه إن رُمتَ الشفاء ، واحذر من المسّ الفرعونيّ (مَا أُرِيكُمْ إِلا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلا سَبِيلَ الرَّشَادِ) ، فإن المشاركةَ في البناء تعزّز الانتماء .

› فضفضة ..

من الأفكار التي لاقتْ قبولًا عريضًا عند "الشباب" .. فكرة برنامج يقوم على هموم الطلاب ومعضلاتهم ، وقد طبّقتُه معهم مرتين .. وبين الأولى والثانية سنوات ! أما المرة الأولى فأسميت البرنامج : [فأينَ يكمنُ الحلّ !؟] .. وزّعنا على الطلاب أوراقًا مخصصةً

للبرنامج ، يكتب الطالب فيها ما يعانيه من مشكلات ومعضلات ، ثم جمعنا الأوراق .. فاجتمع لدينا أكثر من مئة مشكلة (بعضهم كتب أكثر من مشكلة) بعضها شرعية وبعضها سلوكية وبعضها اجتماعية .. وهكذا ! ثم قسّمنا ما وردنا إلى أقسام ، وبعثنا بكلِّ قسمٍ إلى مختصّ في قضايا الشباب ، أذكر منهم "د.محمد الدويش" والشيخ "خالد الخليوي" .. بل شاركت والدة أحد المشرفين في علاج بعض الحالات بحكم الاختصاص ، فلما اجتمعت الاجابات .. جمعناها ونسّقناها وأخرجناها في كتيّب أسميناه باسم البرنامج ثم طبعناه ووزعناه على الطلاب ، وقد قرأناه في أكثر من جلسة مع إتاحة الفرصة لمن أراد التعليق والمشاركة .. وكان التفاعل عظيمًا ! ويا أسفي .. فقد فقدتُ كل النّسَخ التي كنتُ أحتفظ بها .

بعد ذلك بقرابة سبع سنوات أو أكثر .. طرحناه مرّةً أخرى تحت مسمى [فضفضة] وكان التفاعل معه عديم النظير؛ إذ اجتمع لدينا زهاء مئة مشكلة .. لكن طريقة تعاملنا معها صارت مختلفةً هذه المرة ! توليتُ اختيار ٣ - ٥ مشكلات في كل لقاء ، مع التحضير للعلاج مسبقًا ، فإذا ألقيت ما عندي سمحتُ لمن شاء التعليق أو الاستدراك أن يفعل ، ولم ينته الفصل الدراسي إلا وقد أتينا على كثيرٍ مما وصل .

› صيْد الفوائد ..

وبمناسبةِ ذِكر الكتيّبات .. أذكر أن "عبدالرحمن" تولى في إحدى السنوات فكرةَ جمع كلِّ ما يُطرَح على الشباب في ملفّ واحد (الدروس الثقافية - كلمات ما بعد الصلوات - ...) ، فاجتمعت لديه مادة ضخمة ، جمعها ورتّبها ثم أخرجها في كتيّب أسماه (الحصاد)، ثم زوّد الجميع بنسخة ، ما زلتُ أحتفظ بها شاهدًا على تلك الأيام الخوالي ، وهي فكرة ممتازة إن أُريد بها الذكرى لا الفائدة العلمية، فالفائدة العلمية هنا لا تكاد تُذكَر .

› ذكرى لا أكثر ..

وأيضًا .. بمناسبة الكتيّبات ، أُصِبنا فترة من الفترات بـ "هوَس الكناشات" ؛ كنا نقوم بتصميم "كناشة" للرحلات الطويلة -كل رحلة على حدة- ، مقسّمة حسب برامج الرحلة (درس تفسير - درس ثقافي - استضافة ...) ، يقوم الطالب بالتعليق وتدوين الفوائد في المكان المخصص ، وبعد الرحلة يحتفظ بها لنفسه ..

أما أنا فتوصلتُ إلى أن قيمتها في كونها ذكرى لا أكثر، ويمكن تحقيقها بما هو أقل كلفة ! فانتهيت عن ذلك ووفّرتُ قيمتها المادية لما هو أهمّ .

› موقف .. وثلاث وقفات

يومَ كنتُ مكلّفًا بالإشراف على القسم الثانوي .. حضرَ إلى إدارة الحلقات في الجامع طالبٌ يرغب في الانضمام إلى القسم الثانوي ! في الحقيقة .. من الأشياء التي تجعلني أتمسّك بالطالب وجود المبادرة من طرفه ، فالطالب الذي يبادر ويبحث عنك تُحِسُّ منه حرصًا يمكن من خلاله أن تُضاعِفَ فيه الأثر .

المهم .. عرضتُ اسمه على المشرفين العاملين معي ، فأبدوا ترحيبَهم .. إلا أن صوتَ معارضةٍ خفيّ كان يزاحمُ هذا الترحيب ، دافعُ المعارضة أن مكان سكن الطالب يقع خارج النطاق الذي تعمل فيه الحلقة ، ونظامنا يقوم على أن يأخذ المشرفُ الطالبَ من بيته إلى الحلقة ، وما دام بيت هذا الطالب خارج النطاق فالأمر فيه عُسر ومشقة ، آخر الأمر .. قرر أحد المشرفين أن يضحي ويتولى أمر الطالب بحيث يأخذه من البيت كل يوم ويعيده ، وكان لمبادرة الطالبِ أثرٌ في ولادة هذه التضحية ..

وبدأ الطالبُ مشواره معنا .. ولا يمرّ يومٌ إلا وتتكشّفُ لنا أمور ! يبدو أننا استعجلنا في قبوله !! من الواضح أنه لن يستمرّ معنا طويلًا إن توغّل في أخطائه ، وبالفعل .. لم يكمل معنا ولا شهرين ، لقد اضطررنا إلى التخلص منه آخر الأمر ، وهنا ثلاث وقفات :

الأولى : احرص على أن تخبر الطالب الجديد بأنه سيخضع لفترة اختبار ، إن تجاوزها فسيكون أحد أعضاء الحلقة بشكلٍ رسمي وإلا فلا ! وكم مدتها ؟ هذه إليك .. أما نحن فلم نكن نحدّها بمدّة ، كنا نبهمها حتى لا تكون فترة الاختبار فترة تصنّع ! أما الفائدة من فترة الاختبار فهي التخلّص من الحرَج .. فحين لا يناسب الطالبُ مجموعتَك فيمكنك التخلص منه دون التحرّج من ذلك ؛ خصوصًا وأن الطالب يعلم أنه في فترة اختبار وتجربة ، فيكون الوقع على الطرفين مُحتمَلًا .

الثانية : إذا قبلت الطالب ورضيته عضوًا في المجموعة بعد فترة الاختبار .. فبيّن له نظام المجموعة وحدودها وخطوطها الحمراء ، وما يُسمَح وما لا يُسمَح .. دعه على بيّنة .. أقِم الحجة ؛ كي لا يصدر منه ما يسوء فيتعذّر بالجهل.

الثالثة : وهي الأهم .. إذا قررتَ أن تستبعد الطالب من المجموعة سواء أثناء فترة الاختبار أو بعدها .. أو حتى بعد قبوله بشكلٍ رسمي ، فاحرص على أن تبلغَ والد الطالب أو والدته أو أخاه الأكبر - أو مَن يحسن تبليغه من أقاربه - بقرار الاستبعاد وأسبابه ، فإنه أبرأ للذمة وأسلم للساحة .. فإنني ما زلتُ أجدُ مُرّ عتاب والد صاحبنا حين استبعدنا ابنه دون أن نخبرَه -على غير العادة- ، وقد أُخبِرتُ أن بعضَ الطلابِ إذا استُبعِد اختار مجموعةً للهو يقضي معها وقتَ الفراغ الذي أحدثه ترك الحلقة ، ولا يجرؤ على هذا أمام والديه إلا باسم الحلقة ، فإذا سأله أبوه أو أمه عن غيابه يخبرهم أنه مع الحلقة وهو في الواقع يلهو مع أصحابه ، فأغلق هذا الباب حتى تسلم من العتاب .

› القمّة ضيّقة ..

قال لي أبو راكان مرّةً : (لا يجتمعُ نسران على قمّةٍ واحدة) .. كانَ يرى عند بعضِ المشرفينَ قدرةً عالية على التواصل الفعّال مع الطلاب ، فيستطيع بموهبته أن يكسبَ الطلاب ويدخل قلوبهم ، فإذا اجتمع في المجموعةِ الواحدة مشرفان أو أكثر يملكون هذه القدرة

وهذه الموهبة .. فإن الأمر قد يتحوّل إلى منافسةٍ و"مناسفة" ، فيسعى كُلُّ مشرفٍ "جذّاب" إلى الهيمنةِ على قلوبِ المريدين ، ومن هنا تنحرف النيّات ويحصل التنافر !

و أبو راكان .. كان يتوقعّ نشوء الخلافات إذا اجتمع النسور في مجموعةٍ واحدة ؛ لأن اجتماعهم يفضي إلى التنافس ثم التنازع ! فالأليَق أن يتوزّع هؤلاء النسور على المجموعات ، كلّ نسرٍ في واحدة.

وهل وجود الشخصية الجذابة التي تهيمن على قلوب الطلاب مُضِرّ ؟!

الأصل لا ! بالعكس هو مفيد ونافع لو أحسنّا أمرين:

١.توظيف هذه الشخصية.

٢.احتواء الطلاب بعد رحيل هذه الشخصية.

أما الأول .. فقد قلت من قبل في غير ما موضع : (بقدرِ ما يحبّك الطلاب لابد أن يكون الأثر) ، فلا يخفى أن بعض المشرفين لا يحفلون بالطلاب ولا يلتفتون إليهم إلا لماما ، ولهذا أسباب مختلفة .. فطبيعةُ المرء سبب ، وترسّخ بعض القناعات سبب ، وعدم وجود الموهبة سبب ، وتوزيع الأدوار بين المشرفين سبب (لين أبي بكر وشدّة عمر) ، وغير ذلك .. ومثلُ هؤلاء لا يغرسون في قلوب الطلاب غرسًا كما يغرسه المشرفُ الجذّاب الذي تميل إليه نفوس الطلاب ، لاحظ .. فأنا أتكلم عن الغرس .. عن المعاني التي تُبذَر في القلب .. فيرعاها المربّي حتى تتدلّى سلوكًا وأخلاقًا وقيمًا ومبادئ ! هذه المعاني ليس من السهل أن يزرعها مشرفٌ جامد ، بل تحتاج إلى زارعٍ يحرث القلب .. وحراثة القلبِ تحتاجُ إلى محراثٍ ليّن .. والمشرفُ الجذّاب أقدرُ الناس على هذه المهمة ، فإذا كان هو الأقدر، فليكن الأثر عميقًا بقدر هذه الموهبة، وإلا كانت جاذبيته بلا رسالة ! ويا للخيبة..

و أما الثاني .. فمعلومٌ أن الطلاب يتأثرونَ برحيل مثل هذا المشرف ، وقد يتجلّى هذا التأثر بصورةِ ضعفٍ إيماني ، أو ضعفٍ في المواظبة والحضور ، أو انسحابٍ كامل .. أو غير ذلك ، وهذا غير بعيد ، وقد تكلمتُ عن علاجه في موطنٍ آخر فليُراجع..

هذا .. وقد يكون المشرفُ "جذّابًا" بسريرةٍ بينه وبين الله فيوضع له القبول في الأرض ، وهذه أعلى المراتب ! وقد يكون كذلك بأخلاقه ومعاملته أو بكرمه وجوده أو بمظهره وهيئته أو بسلوكه وطبعه أو بميوله واهتماماته .. فالمسالك كثيرة ، والناس مشارب ! وقد يجذبُ فئةً من الطلاب دون فئة ؛ لاتفاق الميول والاهتمامات مثلًا .. فليكن أثره فيهم كبيرًا دون تهميش البقيّة ، وهكذا.

› الصّغار .. عَمَار !

من الأفكار التي طبقناها .. إشراك بعض الصغار (المرحلة الابتدائية) من أقارب "الشباب" في رحلات نهاية الأسبوع ، طبقتُ هذه الفكرة بشكلٍ محدود جدًا وأراها جميلة ! دعاية لمحضنك وتجديد في الدماء وتحريك للأجواء .. مثلاً في كل أسبوع أو كل أسبوعين أو كل ثلاثة يُدعى صغيران أو أكثر ، بحسب ما تراه مناسبا .

› كان صرحًا من خيالٍ فهوى ..!

حين ينتقلُ الطالب إلى مرحلة الاشراف فإن الودّ الذي بينه وبين مشرفه مهددٌ بالضعف أو الزوال ! ها أنا وأنت قد تساوتْ منا الرؤوس، فلا أنا بالمتلقي ولا أنت بالوصيّ .. هكذا يرى المشرف الجديد – كثيرٌ منهم وليسوا الأكثر - .. بينما المشرف القديم يترفّع عن هذه المساواة ويستعيذ بالله من هذا الاعتداد والتباهي، فيأبى صاحبَه إلا تلميذًا متلقيًا، وكلا الطرفين ذميم ! والوسط المحمود .. أن يعتدل الطرفان حتى لا يخسر طرَفٌ صاحبَه، فلا ينبغي للمشرفِ العتيق أن يكبِتَ أخاه أو يحتقرَه أو يُسفِّهَ قولَه ورأيَه، بل الواجب أن يُنصِتَ .. فالحكمةُ ضالةُ المؤمن، وقد استمعَ خيرُ البريّةِ – صلى الله عليه وسلم – إلى

رأيِ مَن هو أقل منه مكانةً ومنزلةً وأخذَ به، كما في قصة الحباب بن المنذر – رضي الله عنه – يوم بدر، ومثلها كثير، ولا أقل من الإنصات إلى رأيه أدبًا ولو لم يكن رأيًا وجيهًا مع ردّهِ بحكمةٍ ولُطف، وعلى المشرفِ الجديد أن يتأنى في طرحِه وأن لا يبحثَ عن المجدِ والتصدُّر، وأن يكون حكيمًا لبِقًا في طرحِه غير متعالم، وأن يتذكّرَ جيّدًا أنه ما زال في العتبةِ الأولى والطريق أمامه مُتمعِّجٌ وطويل ..

وما أشدَّ الخسارةَ وأفدحَ المصيبة حين ينشرخ صرحُ المودّة في اجتماعٍ عابر برأيٍ طائش .. أو كلمةٍ لم توزن ..! وقد ظل الاثنان يبنيانه ويرصّانه سنوات .. وقد رأيتُ شيئًا من هذا فتألمتُ ألمًا شديدا، فبعد حرارةِ اللقاء وأُنس الحديث .. طوى كلٌّ كشحه عن أخيه .. حتى إن أحدَهما ليجلس حذو أخيه وما بين قلبيهما كما بين المشرق والمغرب !

› كم ستلبث هنا ؟!

من توفيق الله لمن عمل في هذه المحاضن أن يعلمَ على وجه التحديد أو التقريب كم سيمكث في عمله الإشرافي ؟! سنة .. سنتين .. ثلاثا ؟؟! وبعد أن يعلم .. يحدد أهدافه الاستراتيجية في المحضن ويوزّعها على سنوات عمله ؛ فالمرء إذا طال أمده في مجالٍ معيّن - مع علوّ الهمة وصلاح النية - فإنه يترك أثرًا أكبر ممن يمرّ بالمحاضن مرور الحاجّ بوادي محسّر !! ولن يكون هذا الأثر جليلًا إلا بجلَال الأهداف المرسومة .. لا سيّما وأن بعض الأهداف الكبيرة لا تتحقق في سنةٍ أو سنتين .. بل تحتاج إلى عُمرٍ أكبر.

وليتني عقِلتُ هذا ! فإنني تحسّرتُ كثيرًا يومَ أن لم تكن رؤيتي واضحةً في هذا .. فبعد الجامعة عملتُ عددًا من السنوات ، وفي كل سنةٍ من هذه السنوات أعمل بنفسيّةِ السنةِ الأخيرة ، ثم أكتشف أنها لم تكن الأخيرة .. ويا حسرتي!

تأكد - إن كنت صاحب همّ وهمّة - أن بوصلةَ أهدافك لن تنضبط إلا إذا أدركت مدى أمدك في هذه التجمعات التربوية.

› الإثراء العفويّ ..

من الأمور المجرّبة النافعة .. استثمار المناسبات للإثراء !

كيف ذلك ؟! تمرُّ المجاميع التربويّة بعددٍ كبير من اللقاءات والدروس والزيارات والرحلات .. ولو تفحّصتَ هذه المسيرة الطويلة لوجدتها مليئةً بالفراغات والفجوات ، بعضُ هذه الفراغات والفجوات يجبُ ملؤها بالمناسب ، والبعضُ الآخر ملؤه كمَال والكمَال .. كمَال !! خُذ عددًا من الأمثلة ليتضح لك المراد : لنفترض أن المجموعة على موعد لزيارة حديقة الحيوانات .. هنا فرصة للإثراء ! ليحرص المشرف قبل الزيارة على القراءة عن تاريخ حدائق الحيوان .. عن طباع بعض الحيوانات الموجودة في الحديقة وسلوكياتها وخصائصها ، وكل ما يراه مناسبًا ، ثم في الزيارة يبثُّ هذه المعلومات بشكلٍ عفويّ دون تكلّف فالطلاب يحبون هذا . ولْتعلم أنه مع ثورة "النت" .. لم يعد هذا التحضير صعبًا ، فبإمكانك الاستفادة من المقالات المختصرة والأفلام الوثائقية .. وإن شئت التوسع فافعل .. لا شيء يمنع ! ومثال آخر : لو سافرتم إلى منطقةٍ من المناطق .. فاحرص على القراءة عن تاريخها ومعالمها وما شابه ذلك .. يحلو للطلاب أن يعلّق المشرف بعفويةٍ عن قصة المَعْلَم الفلاني والبقعة الفلانية وما جرى في هذه المنطقة من الوقائع والأحداث . ومثل هذا يُقال في الدروس واللقاءات الثقافية .. فمن المعلوم أن اللقاء الثقافي يُحدّد موضوعه مع الضيف قبل انعقاده .. فلا يحرم المشرف نفسه من القراءة حولَه حتى يثري اللقاء بتعليقاته متى ما وجَد نقصًا في طرح الضيف .. والنقص حاصلٌ ولا بدّ .

› الزيارات النوعيّة حياة !

مرّ بنا زمنٌ ونحن طلابٌ في هذه المحاضن لا نجدُ حماسًا لبرنامج الزيارة ، برنامج مكرر باهت ! نزور الندوة العالمية أو جمعية البر أو إعمار المساجد أو أحد مكاتب الدعوة ..

فيأخذنا الدليل إلى جولةٍ على المكاتب ويشرح لنا مهمة كل مكتب .. وإن وجدَ وقتًا عرَض لنا فيلمًا وثائقيًا لبعض منجزات مؤسسته ، ثم نرحل ! برنامج الزيارة كان يعني لنا شيئًا من الملل .. الملل المكرر مراتٍ ومرات ! لماذا كان المشرفون يقتصرون على زيارة المؤسسات الخيرية ؟؟ لماذا لا نزور المكتبات العامة ..؟ المصانع العملاقة ..؟ المشاريع التجارية الناجحة ..؟ الآثار القديمة ..؟ الأطلال المهجورة ..؟! لا أدري ! الذي أعلمه أننا لما تولينا مهمة الإشراف كررنا الخطأ مرّة .. وتجاوزناه مرّة .

يقول البعض : (لا يوجد في البلد ما يستحق الزيارة) أبدًا هذا غير صحيح .. مشكلتنا أننا لا نبحث .. و إذا بحثنا لا نقوم بالتنسيق المبكر ، على مدى ستّ سنوات (مجموع مرحلتي المتوسط والثانوي) يمكنك تنسيق اثنتي عشرَةَ زيارةً نوعيّة مختلفة ، بمعدّل زيارة في كل فصل دراسي ، وفي الرحلات التي تقوم بها المجموعة خارج المنطقة ستكون الفرصة أكبر للقيام بزيارات مميّزة ..

ومما رسخَ في ذهني من الزيارات النوعية .. زيارة حديقة الحيوانات مع طلاب المرحلة المتوسطة ، زيارة ألبان المراعي ، زيارة جامع الراجحي والاطلاع على مرافقه ، زيارة مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف في المدينة ، زيارة مصنع حلويات (لا أذكر اسمه) ، زيارة مغاسل الرهدن ، زيارة مركز "سايتك" في الخبر ، زيارة محطة الأرصاد الجوية في مطار الملك خالد ، زيارة مقبرة الصحابة في الجبيلة ، زيارة مصنع الربيع للعصائر .. وعلى النقيض من ذلك .. فهناك زيارات لم أحفل بها أبدًا .

أما المساعي .. فقد حاولنا التنسيق مع عددٍ من الجهات لزيارتها لكن لم يشأ الله لها أن تكون ، كالبنية التحتية للحرم ، ومصنع ألبان الطائف ، ومصنع الكسوة ، ومصنع باجة للمكسرات ، ومصنع مياه الفيحاء ، و أحد مصانع التمور .. وأخرى لا تحتفظ بها الذاكرة .

› البديل أوّلاً ..

صياغةُ الخطّة البرامجيّة أمرٌ يستنفدُ الوقتَ والجُهد ، خصوصًا إذا كان المشرفُ يسعى إلى الخروج من الحالةِ التقليديّةِ الرتيبة إلى الظاهرةِ النوعيّةِ الفريدة .. يستوي في ذلك الخطّة البرامجيّة الطويلة (البرنامج السنوي والفصليّ) والخطّة البرامجيّة القصيرة (الرحلات مثلًا) ، وتختلف المجاميع التربويّة في طريقة إعداد هذه الخطة وكتابتها ، وقد جربتُ طُرُقًا عدّة فوجدتُ أن الأسلوب يختلف والنتيجة واحدة .. جربتُ أن آخذَ خطّةً لمجموعةٍ تربويّة فأحذفَ منها وأزيد حتى أجدَ أنها تأطّرت على ما يتناسب مع المجموعةِ التي أعمل فيها ، وجربتُ أن أصوغَ الخطّةَ مع المشرفين العاملين معي في الحقل التربوي ذاته ، وجربتُ أيضًا أن أصوغَها لوحدي ثم أعرضها على المشرفين حتى تخضع للنقد والتسديد .. وفي كل الحالات .. تأتي بعض الاعتراضات على بعض ما في الخطة ، بعضُ هذه الاعتراضات وجيهٌ ومقبول .. تستحضر معه حقيقة النقص البشريّ ، وبعضها مردودٌ مرفوض .. يُطبِق المشرفون على ردّهِ ورفضه ، لكن الذي كان يؤذيني كثيرًا .. أن يعترض أحد المشرفين على برنامج لسببٍ مقبولٍ بوجهٍ من الوجوه دون أن يقترحَ البديل أو يسعى في إيجاده ، كان البعض يعترض على بعض البرامج ولسان حاله : أنا أعترض وأنتَ تبحث عن بديل تملأ به فراغ الخطة . وكأنه لا يعلم أنك حين كتبتَ الخطّة قد استنفدتَ جهدك في صياغتها بما يتناسب مع بيئة العمل ، حينها قررتُ أن أنصّ على أنه : "لا اعتراض إلا ببديل" ، قلتُ لهم : ميدان الخطة لكم .. ومن شاء الاعتراض فله ذلك ، بشرط .. أن يُوجِد البديل ، فمتى ما اقترحَ بديلًا كان تصويت المشرفين هو الفيْصَل . فاعتدل المزاج بعد ذلك .

› لكل شيءٍ ضريبة !

والمشرفُ الجذاب وإن كان أثره في الطلاب قويًا إلا أنه غير مستثنىً من هذه القاعدة .. هو بحاجةٍ إلى ميزان دقيق يستطيع أن يوازنَ به بين علائقه وعسى أن يسلم ، قد يختل

ميزانه فيجنح إلى طالبٍ أو إلى مجموعةِ طلاب - بقصدٍ أو بغير قصد .. بحسن نيّة أو بدون ذلك - فتمضغه الأفواه وتلوكه الألسن ، وقد يدفع الضريبة ولو لم يختل ميزانه .. بدافع حقدٍ أو غيرة أو سوء ظن من قِبَل مشرفٍ أو طالب ! فاسعَ أولًا أن تضبط ميزانك .. فإن فعلتَ فلا يضرّك بعد ذلك ما صنعوا ، إنما صنعوا كيد حاسد .. ولا يفلح الحاسدُ حيثُ أتى .

› الرجيع الموجع ..

من أفضل الطرق التي يعمد إليها مشرفو المحضن من أجل التخلص من أحد أفراد المحضن هي تحويله إلى محضنٍ آخر يتولى عناء متابعته وتوجيهه ، ومن أجلّ مكاسب هذه الطريقة أن المحضن القديم يضمن انشغال العضو المبتور عنه وعن طلابه .. وقلّ أن يسلم المحضن الجديد من تبعات العضو الجديد / المبتور إن عاجلًا أو آجلا ، والمُلاحظ أن بعض التجمّعات التربوية تكون مُجْمَعًا لرجيع الحلقات ؛ إذ تستقبل من طلاب الحلقات كُلَّ مُسرَّحٍ ومنبوذ دون فحصٍ ولا تدقيق ، و لا تدور دورةُ الزمان إلا والمحضن في منتهى الركاكة والضعف ، ولا يُلام حينئذٍ أحدٌ سواك .. إذ : يداك أوكتا وفوك نفخ !

› الوقف .. أبو فهد

رأيته أول مرة في المركز الصيفي في صيفيةِ السنة التي انتقلتُ فيها من المرحلة المتوسطة إلى المرحلة الثانوية .. وكانَ حينها مشرفًا من مشرفي المركز ، ومشرفًا على إحدى حلقات التحفيظ ! إذا حضَر الحديث عنه في مجلس .. فإن الكلام أكثره يطوف على صفة البذل والاحتساب ، عجيبٌ أمرُ هذا "الخالد" .. وقته وماله وقفٌ على شباب الحلقات حتى في أصعب الظروف وأمرّ اللحظات ، ما إن ينتهي من عمله الوظيفي ظهرًا حتى يتحرّك بعد العصر ليأخذ ما كتب الله له من الطلاب في طريقه إلى الحلقة ، ثم يبدأ البرنامج إلى أن ينتهي مع أذان المغرب أو مع أذان العشاء لا يميلُ إلى راحةٍ ولا يختار دَعَةً ، وهو في

الغالب المسؤول عن تنسيق مكان الرحلة في نهاية الأسبوع (استراحة غالبًا) والمسؤول عن إعداد البرنامج وسَيْرِه ، سواء كان مسابقةً ترفيهيةً أو لقاءً ثقافيا أو غير ذلك ..

هذا برنامجه في المساء طوالَ العام، وأما في الصباح .. فبالإضافة إلى كونه من موظفي سلك التعليم، فإنه كان مُنهمكًا في العمل على برامج "التوعية"، لهُ في كلِّ فسحةٍ لقاء مع نخبةٍ من الطلاب يقدّم لهم فيه ما ينفع من تعليمٍ أو ترفيهٍ أو تأهيل .. يقدّم كل ذلك ويُعِدُّ له احتسابا دونما أجر يتقاضاه، مع ما يجده في سبيل ذلك من عنَتٍ ومشقّة، ناهيك عن مضايقات بعض المعلمين البطّالين ..

كان "أبو فهد" يحبُّ هذه التجمعات التربوية حُبًّا يأخذ بمجامع قلبه ، ويشغف بها شغفًا يُنسيه نفسَه، و لا يأخذ مقابلَ جهده فيها شيئًا من مباهج الحياة؛ لأنه يراها بهجةَ الحياةِ وزهرَتَها ..

أقعَدَه ذات سنةٍ مرضٌ شديد أطالَ مكوثَه، فكان يُغالِب نفسَه على المشاركةِ فيما يستطيع، فمرّةً تغلبه .. وأخرى يغلبها، ولا أنسى يومَ أن سافرنا في إحدى السنوات إلى "أبها" وكان يتشوّفُ إلى مثل هذه الرحلات ولا يتخلّف عنها أبدًا، فغالَب نفسَه على المشاركة .. فلمّا لم يستطع أن يأتيَ معنا عن طريقِ البرّ، حجزَ مقعدًا على الخطوط الجويّة .. طارَ إلينا بقلبه قبل أن يلحقنا بجسده، فشارك في كل أجزاء الرحلةِ بهمّةٍ ونشاط .. كأنما قد نشط من عقال، ولقد رأيتُ أحد طلابه يرْقيه في كلّ ليلة .. كان مشهدًا لا يوصف !!

خرّجَ "أبو فهد" أجيالًا من الشباب صنعهم على عينه، في كّلِ سنةٍ يتخرّج من حلقته ما يقارب سبعةَ طلاب، وأحسب أنه قد عمِل في حلقته التربوية ما يقارب الخمسةَ عشرَ عاما محتسبًا دون ضجيج، وهذا يعني أنه خرّج طيلة هذه المدّة أكثر من مئةِ طالب ، وهذه نتاجٌ ضخم في عمل لا ترفده المادة، وبجهدٍ أقرب إلى الجهد الفردي؛ إذْ كان يقوم

بالعمل بنفسه غالبًا .. وقد ينضم إليه من يعينه ويشدّ من أزره، وقلَّ من يستمرّ معه مدةً طويلة !

ولك أن تعلَم .. أن "أبا فهد" لم يكن ذا خلفيّةٍ علميّة، ولم يكن صاحبَ مُؤهلٍ عالٍ، ولم يكن مُنَظِّرًا ولا خطيبًا ولا أيَّ شيءٍ من ذلك .. بل كان من عموم الناس وأوساطهم، بل ولم أرَهُ يومًا يلقي على مجموعتهِ ولا درسًا واحدًا، وأدركتُهُ يأبى أن يتقدّم لصلاةٍ جهريّة، لم يكن يرى نفسَه أهلًا لذلك .. إنما كان يتميّزُ بأمرٍ لو أن أحدَنا حذا حذوه فيه لرأينا أثر ذلك في طلابنا ومَن تحتَنا، كان قدوةً مُبادِرا .. يأمرهم بالأمر فيكون أول من يمتثل، وينهاهم عن أمرٍ فيكون أول من ينتهي، وقد تشرّفتُ بانضمام بعضِ طلابه إليَّ .. فرأيتُ فيهم هذه الخصلةَ العظيمة التي رباهم عليها، قومٌ مُبادِرون في كل شيء .. في الاصطفاف للصلاة، وتهيئة المكان للبرنامج، وتنظيفه بعد الانتهاء منه .. إلخ، كانوا يخلبون العقول ويلفتون الأنظار ، والعينُ تعجب .. والقلب يثني ويشكر .

› البصير بالرجال ..

وكما أدعو إلى عدم الاستعجال في الحُكم على أحد الأفراد فسادًا وصلاحا من خلال لقاءٍ أو لقاءيْن .. فإنني أدعو إلى الاستئناس برأي كلِّ مُستَبصِرٍ خبيرٍ بالرجال – ولو من أول نظرة - ، وهذا الرأي ينبغي أن لا يُبنى عليه عمل ، فلا يُستبعد فردٌ من المحضن بسببِ رأي فلانٍ فيه ، فالخبير المُستشرِفُ بشَر ، ليس معصومًا من الحيْدةِ والخطأ ، هذا أقوله في حقّ البصير بالرجال حقّا وإلا ففي المشرفين من يلبسُ جبّةَ البصير وهو بعيدٌ عن ذلك غايةَ البُعد .

ومما لا أنساه .. أننا استقطبنا طالبيْن جديديْن للمحضن ، وكانا من رجيع الحلقات ، والذي حصل أن "معاذًا" ومن أوّل نظرة – وهو بصيرٌ بالرجال - .. قال لي : (الأول بيفتح الله عليه، والثاني ما يصلح) ، ثم تركناهما للزمن .. فكان كما قال .. الأول مضى مع

القافلةِ طالبًا ومشرفًا وكان له أثر ، والآخر صُرِف قبل أن يُكمل السنتين ، مع أنهما – كلاهما - في بادئ الأمر كانا على سمتٍ ومظهرٍ واحد يوحي بأنهما من أهل الاستقامة والرشاد ! ولم تكن هذه الحالة بِدعًا من استشرافات "معاذ" ، بل كان له سوابق ولواحق .. واللهُ الواهب !

› إيقاظ في صورة اعتراض !

انفردتُ بأبي راكان يومًا وقلتُ له –وكان أكبر مشرفي الجامع وصاحب الكلمة الأولى فيه- : (بالله كيف تُطِيقُ سيلَ الاعتراضات هذا من قِبَلِ فلان ..؟ كلما طرحتَ أمرًا كان اعتراضه حاضرًا ..؟ إلامَ تصبر ..؟) خرجَ الجوابُ من "أبي راكان" هيّنًا ليّنًا عميقًا بعيدَ الغوْر ! إذ قال لي : (ألا ترى هذا الـ فلان ناجحًا في مسيرته معنا ؟) اللّهُمَّ نعم ! (ألا تراه يستلم المهمةَ فيُشبِعُها إنجازا ؟) اللّهُمَّ نعم ! (ألا تراه يصولُ ويقاتل من أجل نجاح المجمّع وتفوّق أنشطته ؟) اللّهُمَّ نعم ! (فما ظنك باعتراضات رجلٍ هذا حاله وهذه إنجازاته ؟ لو كانت هذه الاعتراضات من رجلٍ فارغٍ بطّال لكان لتذمّرك هذا وجه ! وشتّان بين من يعترضُ وصفحتُهُ ملآى بالإنجازات ومن يعترض وهو في دوّامةِ الفشل يدور .. فالاعتراض المتولّد عن سابق خبرةٍ وتجربةٍ ونجاح .. يكون أشبه بالقرصات الموقظة ، فهي وإن كانت ذات ألم إلا أنها تحفّز الانتباه في مُخّ العمل) آمنتُ حينذاك بما قاله أبو راكان – وما أوسع صدره – وصار حاضرًا في ذهني أن أصبرَ على أهل الخبرةِ والسابقة والإنجاز أكثر من غيرهم .

› شنطة السفر !

ولأن الانضمام إلى هذه المجاميع يعني أن تسافر أكثر .. فإنني أشيرُ هنا إلى شيءٍ جربته أخيرًا فوجدتُ فيه راحتي .. وهو يتعلق بالثياب والشمغ تحديدا ، فهما يحتاجان إلى مزيد عناية واهتمام حال السفر .. فقد وجدتُ أن الأسلم أن آخذها معي في السفر دون كيّ ، ثم

إذا وصلتُ إلى الوجهة المنشودة أقوم بكيّها في محلات الكيّ المتخصصة ، هذا أريَح بكثير .. لم أعُد بحاجةٍ إلى البحث عن مكان أمدّها فيه داخل الحافلة ، ولم يعد ذهني منشغلا بالعنايةِ بها والخوف عليها من حركةِ أفراد الرحلة وشغبهم .

› جلسة عربيّة متحرّكة ..

من الأفكار المحلّقة التي طبقناها في الأسفار .. فكرة لا يمكن تنفيذها إلا من خلال حافلة النقل الجماعي (٥٠ راكب) وقد لا يرضى مالك الحافلة بتطبيقها ، فلا بد من رضاه أوّلا .. ومنشأ الفكرة أننا أعرضنا – بعد تجربة – عن الحافلات الصغيرة (٣٠ راكب – كوستر) وفضّلنا استبدالها بحافلات النقل الجماعي الكبيرة لعدّة اعتبارات .. أهمها البحث عن الراحة -خصوصا في خطوط السفر الطويلة- وجودة التكييف لاسيما في صيف نجد الحارق ، لكن تولّدت لدينا مشكلة في توزيع الطلاب على الحافلة الكبيرة ، فهي تَسَع خمسين راكبا .. وعددنا في أحسن أحواله لا يتجاوز الثلاثين – مع المشرفين - ، وهذا يعني أن الطلاب سيكونون مشتتين داخل الحافلة ، وإلزام كل فردٍ بالبقاء في مقعدٍ معيّن متعسِّر .. فما الحل ؟؟ جاءت الفكرةُ الجبّارة هِبةً من السماء ! طلبنا من مالك المركبة أن يزيل المقاعد المثبتة في الصفوف الأربعة الأخيرة بعد أن تبيّن لنا عدم الحاجةِ إليها (وهي عملية سهلة، وقد يوافق مقابل مبلغ رمزي) ، فأزال يمينها وشمالها .. وصرنا نملكُ فراغًا لا بأس به في الخلف ، ثم فرشنا المكان وأحضرنا جلسة عربيّة صغيرة بمقاس الفراغ الموجود فوضعناها فيه ، ولا تسل بعد ذلك عن جمال هذه الإضافة المُبتكَرة .. ومدى أثرها الإيجابي على أجواء الرحلة ، ولا تخلو من سلبيات .. فالبعض أرادها للنوم .. ولا لوْم ، والبعض رابَط فيها لمّا وجد الراحة .. لكن كل هذا يمكن ضبطه من خلال نظامٍ يُعتمَد ويُعمل به .

› سؤالٌ يتكرر ..!

وردني هذا السؤال كثيرًا .. و بصيَغ مختلفة : ما الهدف من العمل مع "الشباب" ؟ هل نحن هنا من أجل إصلاح الشباب ؟ أم من أجل تخريج طلابٍ حفَظَة ..؟ أم لأجل صناعةِ قيادات تقود الأمة في المستقبل القريب ؟؟ لأي شيءٍ نحن هنا ؟؟ وقبل أن أجيب .. فإن الشيطان يزيّن للبعض مثل هذه الأسئلة حتى يجرّحه بمباضع التثبيط ، فإذا ثبطّه فقد نالَ منه !

أما الجواب .. فالأهداف كثيرة ما بين صغيرة وكبيرة .. ينضوي بعضها تحت بعض ، شيءٌ منها عامٌ يشملُ الجميع ، وشيءٌ منها خاصٌ يتعلق ببعض الأفراد ، هذه الأهداف كلُّها تمضي في خطٍّ متوازٍ لا تتقاطع ! فأنت هنا من أجل العمل على إصلاح الشباب والحفاظ عليهم ، ومن أجل اكتشاف مواهبهم وتوجيهها في صالح الأمة ، ومن أجل تخريج الحفّاظ والمتقنين ، ومن أجل كل هدفٍ نبيل .. لكن الركن الشديد الذي تأوي إليه حين تتكاثر عليك مثل هذه الأسئلة وتستفزُّ عطاءك .. أو حين تصطدم بواقع مجموعتك الضعيف ومخرجاتها التي لا ترتقي .. هو قول الله تعالى: (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ، وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) يكفيك هذا ! يكفي أن يكون الهدفُ هو مجرّد الصحبةِ الصالحة وإن لم يكن هناك مزيد حرصٍ على قرآن أو درسٍ أو موعظة ، يكفي أن تجمعهم لتحفظ الخير فيهم وتحفّزهم عليه .. هذا أضعف الإيمان – وليس بضعيفٍ ولا قليل - .. هَب أنّك لم تُخرّج حافظًا ولا طالب علمٍ ولا قائدًا يؤثّر في الأمة ، ألا يكفيك أن تذهبَ بأجور تلك اللقاءات الصالحة وما جرى فيها من خيرٍ لا يحصيه إلا الكتَبَة ..؟! ألا تكفيكَ دعواتُ الآباء والأمهات جزاء ما قدّمتَ من وقتٍ وجُهدٍ للحفاظ على أبنائهم وأطرهم على الخير أطرا ..؟

فإن كان فيك بقيّة من عزمَة وهمّة .. فالتفتْ لأصحاب الطاقات والمواهب ، ووظّف ما اكتنزوه بين أعطافهم في سبيل الله والأمّة ، ولن تخلو مجموعتك من موهوب إن أحسنتَ الاكتشاف . فإن خلَت فـ لْتتذكّر .. أن النبي – صلى الله عليه وسلم – ربّى الصحابةَ وصنعهم على عينه ، وكان فيهم الموهوب ومَن لا موهبةَ له .. والعميق والبسيط .. والعامل والخامل، فما كان لنورِ النبوّةِ أن يكون حِكرًا على فئةٍ دون أختها ، فكن كالنبيّ – صلى الله عليه وسلم - مع أصحابه .

› وهكذا الأنبياء ..

فإن قلتَ : لقد بذلتُ نفسي ووقتي وجهدي لهؤلاء الشباب .. فلما استدار الزمان انتكسوا وبدّلوا .. أو انتكس كثيرٌ منهم وبدّل .. أو انتكس بعضهم وبدّل .. أفلا يكون هذا فشلًا وقلّةَ توفيق ..؟ يكن الجواب : (... فَجَعَلَ يَمُرُّ النَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلُ ، وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلاَنِ ، وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّهْطُ ، وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ ...) [حديث صحيح] ، وظلَّ نوحٌ - عليه السلام – يدعو قومَه ألف سنةٍ إلا خمسين عاما .. فكانت النتيجة : (وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ) جاء عن ابن عباس أنهم كانوا ثمانين نفسا !!

فلستَ أعلى مقامًا من النبوّة .. ومنتهى الغاية أن تبذل السبب وتكِلَ النتيجةَ إلى ربِّ السبب ، والأجر محفوظٌ لمن عمِل وأخلص .

› تأميم الطموح ..

فإذا جمعتَ تلاميذك بين يديك .. فأخبرهم أنهم هُنا من أجل هذه الأمّة الكلمى ! من أجل جراحها النازفة ! وآلامها المشبوبة .. إياك أن تزرعَ في ضمائرهم أنهم أبناء هذه الحدود المستوردة !! إياكَ أن تأسرَ طموحاتهم على تلك "الحدود" .. إياكَ أن تلقى الله "وطنيًّا" تربّي شبابَ المسلمين على أن ينتهوا عند السياج .. ما اللهُ يرضى ولا رسوله ! تعاهدهم بالحديثِ عن صوْلاتِ رجال أمّتهم وشبابِها ، تعاهدهم بالحديث عن الغرباء ..

عن المُطارَدين .. عن المصلوبين على أعواد المشانق ! حفّز فيهم قيمةَ الثأر .. أخبِرهم أنهم كانوا في السّنام يومًا .. ثم تدهدهوا ! أخبِرهم أن العالمَ كلَّه يتحرّك لاستئصالهم واستئصال أمتهم .. وأنه لابدّ من العمل .. كلٌّ بما يملك وما يستطيع .. وأن العالم لا يقف إلا عند أعقاب الأقوياء !

› نظرة في أخبار السّلف !

هناك إشكاليّة حقيقية في توظيف أخبار السلف في أطروحاتنا التربويّة، فمعلومٌ أن الهدفَ الأسمى من بثّها في أسماع المتربّين حال القصّ والوعظ والتذكير .. هو شحذُ هممهم للتأسّي والاقتداء، وهو هدفٌ نبيلٌ مفهوم، إلا أنّ هذا الهدف قد يأتي بشكلٍ عكسيّ لا تتحقق معه الغاية المُرادة، فيؤثّر سلبًا على بعض العيّنات، فنكون قد أسأنا من حيث أردنا الصواب والإحسان، و لا يخفى أن بعضَ الأخبار مُختلَقٌ مكذوب، وبعضها مشكوكٌ في صحته، وبعضها مسكوتٌ عنه، وبعضُها صحيحٌ إلا أنه مُعجِزٌ يشبه الكرامة، فيقوم المشرفُ – وهو يريد الإحسان – بجمع هذه الأخبار وسردِها في نسَقٍ واحد، جامعًا بين الحديث عن قدراتٍ ومواهب علميّة فوقَ طاقةِ البشر ومسالك تعبدّيةِ ليستْ في السياق العاديّ، راجيًا بذلك أن يُحفِّز همم طلابه ويوقِدَ مشاعل الإيمان في قلوبهم . والواقع .. أنه يُفتِّرهم ويُهبِّط من عزائمهم من حيث لا يدري، فأينَهم وزهدَ ابن أدهم ..؟ وأينَهُم وتنسُّك بشر بن الحافي ..؟ وأينَهم وجلَدَ بقيّ بن مخلَد ..؟ وأينهم وقيام ثابت البناني ..؟ وأينهم وحفظ الشافعي ..؟ كلُّ هذه الأخبار تأتيهم تباعًا في مجلسٍ واحد، والمتلقي يعلمُ يقينًا مدى البون الشاسع بينه وبين أولئك الأفذاذ، فيسترجع بينه وبين نفسه ضعفَه وقصورَه ومعاصيه، فيصيبه الخوَر والضعف، وتحدِّثه نفسه بالانقطاع والتوقّف؛ لأن الشُّقّةَ بعيدة .. والمفازةَ ليس لها منتهى، فحينها نخسر عنصرًا كان من الأولى أن لا نخسره، إذ كان بالإمكان أن نكون معتدلين في طرحنا .. وأن ندركَ أن خير قرون الخليقة على الإطلاق .. قرنُ النبي – صلى الله عليه وسلم – وأصحابه كان لا يخلو

من حالات الضعف والقصور، وأن النفسَ مهما تاقتْ إلى الكمال وبذلتْ أسبابه فإنها تتعثر وتسقط، وقلَّ من يسلَم، والاتزان كله في الجمع بين الرجاء والخوف، والترغيب والترهيب، والوعد والوعيد، هذه طريقة أهل السنّة في كل زمان ومكان ..

هذا كله إذا سلمنا أن المنقول عن بعض السلف في الجوانب التعبّدية مُتّسقٌ مع السنة، وإلا ففي بعض المنقول عنهم من الأقوال والأفعال ما يخالف سنة النبي – صلى الله عليه وسلم -، والله أعلمُ بصحته .

وحول هذا .. أنصح بالاستماع إلى محاضرة د.إياد قنيبي بعنوان : (ظاهرة المبالغات في مرويات العبادة والورَع) فهي في غايةِ النفع والفائدة.

› اقتراح يفيضُ جَمالاً !

قال لي عبدالله – وكان حينها طالبًا يافعًا في المرحلة الثانوية - : (لماذا لا يستفيد المشرفون من فترة عملهم الاحتسابية مع الشباب بشكلٍ يخدمهم في مستقبلهم الوظيفيّ ؟؟) يعني ..؟! (يعني أن يكونوا عاملين تحت مظلةِ جهةٍ حكومية بشكلٍ رسمي حقيقيّ لا شكلي .. يؤلمني أن يعمل أحدهم مع الحلقات سنين طويلة ثم هي لا تخدمه في وظيفته ولو بشهادة خبرة معتمدة تجعله مُقدَّمًا على غيره .. فضلًا عن احتسابها كسنوات خدمة .. فضلًا عن الترقيات .. إلخ) كلامٌ جميل توقفتُ عنده مليًّا أتأمله .. ولا أدري إن كانت هذه الفكرة مستحيلة التطبيق أو ممكنة .. المهم أنها فكرة أنيقة وإن تعسّر تطبيقها ! وهي – بالمناسبة – ستكون محفّزةً للعمل .. ستكون دافعًا قويًا لاستمرار المشرفين في العمل سنواتٍ أطول .

› و "أنس" طبّق فكرة راقية لكنها لم تكتمل ..

إذْ أراد بشكلٍ جدّي أن تكون الحلقةُ رافدًا أصيلًا يمدُّ الطالبَ بأسباب النجاح في حياته المستقبلية – دراسيةً ووظيفيّة – وكان مفتاحه في ذلك .. التركيز على الدورات التي

تعطي الطالب فائدةً حقيقة .. كان يتحسّر على المشاركةِ في دورات ضعيفة لا تقدّم للطالبِ شيئًا يُذكَر ، وكان يحزُّ في نفسه أن يخرجَ الطالب من دورةٍ مفيدة دون أن يحصل مقابلها على شهادةِ حضورٍ معتمدَة ، وكان يؤلمه أن تُطرَح دورةٌ قوية دون أن تأخذ وقتها .. وكان ينادي كثيرًا .. أنه من حقّ الطالب أن يحصل على شهادةٍ معتمدة لكل دورةٍ يحضرها ؛ حتى ترفع أسهمه في وظيفته المستقبلية .. بدأ "أنس" في تصحيح هذا المسار عند الشباب .. وحقق نجاحاتٍ جيّدة لا يمكن لمنصفٍ أن يجحدها ، ثم ماذا ؟؟ انتهت دورةُ "أنس" الإشرافية ، وسلّم الملفات لمن بعده .. فخبا بريق تلك الدورات بأفول "أنس" نجم تلك المرحلة !

› التوظيف الذكيّ ..

أصرّ والد أحد الطلاّب أن يمنع ابنه من المشاركةِ مع الحلقة وقتَ برامج المغرب ، والسبب .. أنه يريد لابنه أن ينخرط في دورة "لغة" يستفيد منها في التخصص الذي سيلتحق به في الجامعة .. وكان الطالب حريصًا غايةَ الحرص على المكوث مع الشباب وحضورِ البرامج كلّها دون تخلّف أو تأخير ، لكن لا مخرجَ من هذه المشكلة ، لجأ الطالب إلى المشرف .. إلى صاحبنا "أنس" ، فاهتبلَ "أنس" الفرصة وأعلن عن إقامةِ دورة لغة إنجليزية مستمرة طوال الفصل الدراسي في مركز متخصص وبسعرٍ معقول – في وقتٍ لا يتعارض مع برامج الحلقة – فمن شاء المشاركةَ فليبادر ! بديهةٌ حاضرة يا "أنس" وتوظيفٌ ذكي للدورات التطويرية التي حرصتَ على إحيائها وتجديدها ! مباشرةً انضم إليها الطالب ، فكسب الدورة ولم يخسر برامج الحلقة .. ولا أشك أن أباه كان مغتبطًا بذلك ، حامدًا للشباب هذه الخطوة الفريدة .

› و لِـ "عليّ" شهادة ..

قال لي حفيد الأنصار "عليّ" – وكان حينذاك قد ودّع العمل الإشرافي وانتقل إلى مسقط رأسه "المدينة" ليمارس عمله الوظيفي بعد تخرّجه من الكليّة .. وكنتُ آنذاك طالبًا في المرحلة الثانوية - : (لم ينفعني في حياتي الوظيفيّةِ شيءٌ كما نفعني العمل مع الشباب .. العمل معهم يشبه دورةً حياتيّةً مكثّفة ، كلما طال أمدك بينهم كسبتَ من الخبرات والمهارات ما لا تمنحه لك دوراتٌ تنظيرية و لا دروسٌ جامدة ، كيف تدير مجموعةً ؟ كيف تواجه جمهورًا ؟ كيف تؤدي فكرةً ؟ كيف تنفّذ عملًا ؟ كيف تحلّ مشكلةً ؟ كيف تروّض أزمةً ..؟ كيف تتعامل مع مختلف الطباع ؟ كيف تصبرُ على تنافر الشخصيات ؟ وكثيرٌ من الـ "كيف؟" تجد جوابه حاضرًا مع الشباب) !

وقبْلَ "عليّ" .. شهِد "أبو سُميّة" شهادةً قصّها علينا في الباصِ ونحن متّجهون إلى أبها .. وكنتُ حينها منتقلًا إلى الصف الثاني ثانوي ، وهو – أي أبو سميّة – من الكهول الذين عاشوا تجربة الحلقات أمدًا طويلا ! فقد حكى لنا الفرق بينه وبين صاحبه في أول حصّة درسٍ ألقياها على الطلاب في التعليم العام .. وكيف أنه كان ثابتًا رابطَ الجأشِ واثقًا من نفسه بفضلِ اعتياده على إلقاء المواعظ والدروس مع الشباب .. خلافًا لصاحبه الذي ارتبك كثيرًا ؛ لأنه لم يعتد مثل هذه المواجهة مع الجمهور .

› و لاحظَ الـ "أمين" شيئًا ..

قال لي "أمين" مرّةً : لاحظتُ أنّ المُحاصَرين من الشباب هم أكثر الناسِ بذلًا متى ما تخلصوا من الحصار ! وقصَّ لي نماذج ممن كان أهلوهم يضيّقون عليهم في مسألةِ بقائهم مع الحلقات التربوية لأيّ سببٍ كان .. وأنهم لما تجاوزوا هذا التضييق بسلام ، رصّعوا هذه المناشط ببصمةٍ من جهودهم وعطائهم لا ينبغي لمنصفٍ أن يعمى عنها .

و قد رأيتُ هذا ..! فقد استعرضت السنوات التي قضيتها مع "الشباب" وبحثتُ في طيّاتها عن أكثر المشرفين عطاءً طوال تلك السنين .. فخرجتُ بمجموعةٍ لابأس بها ، وكان في مقدّمةِ هؤلاء اثنان من المشرفين .. كانا ذا أثرٍ ظاهر يعترفُ به كلُّ مَن عاصَر تلك الفترة ، بل كان يُطلق على أحدهما لقب "مجدّد الجامع" .. أي مجدد أنشطته وبرامجه ، وحين تأملتُ مسيرتهما يوم أن كانا طالبيْن في المحضن ، وجدتهما كما قال "أمين" !! عاشا حصارًا خانقًا من أهليهما ، بل إن أحدهما قد أُبعِدَ قسرًا من قِبَل أهله عن "الشباب" فترةً من الزمن .. والآخر أوذي من أهله في سبيل ذلك إلا أنه صبَرَ فظفَر ..

وسرُّ الأمر – والله أعلم – أن قيمةَ الشيء لا تعظم إلا بطول المكابدة في سبيل الحصول عليه .. فإذا حصل عليه تشبّثَ به وأعطاه نفسَه ووقته ! وكم من شابٍ دخل في هذه المجاميع سهلًا .. فخرج سهلا !

› بلوى النجوى !

لم أكن أحبّذ أن أرى المشرفَ يناجي المشرف بمحضر من الطلاب ، ولا أقبل أن يُصنعَ هذا معي من قِبَل مشرفٍ آخر .. وكدتُ أن أوبّخ أحدهم على هذا الصنيع لولا أنه يكبرني سنًا ، كان ينطلقُ إليّ كالسهم الخارق وأنا في السيارة ومعي مجموعةٌ من الطلاب ليهمس في أذني كلماتٍ كان يمكنه تأجليها .. كلماتٍ ليست بذات أهمية .

› توفيقٌ في التلفيق !

من البرامج التي لا يخفى على الطلابِ تلفيقها، برنامج كان المشرفون يلجؤون إليه إذا لم يجدوا برنامجًا يسدّون به نقصَ الخطّة في رحلة آخر الأسبوع ! لكنه في الحقيقة برنامجٌ مفيد، ويمكن من خلاله أن نكتشفَ عددًا من المواهبِ دون عناء، وميزةُ البرنامج أنه يعتمدُ عنصر المفاجأة؛ لأنه يأتي دون إعدادٍ ولا تحضير .. حينَ طُرِح البرنامج أوّل مرّة – من الواضح أنه لم يكن أول مرة.. لكن على الأقل أول مرة بالنسبة لي – كنتُ

في الصف الأول الثانوي مشاركًا في رحلة أبها مع المركز الصيفي، قالَ لنا المشرف : (الآن برنامج نتداول فيه الفائدة، كل شخص يحضّر فائدة ويلقيها على الحضور في دقيقتين)، ستتكلم أمام أربعين أو يزيدون، وليس ثمَّ إنترنت ولا هواتف ذكيّة ولا ما شابه !! كنا في ظلمةِ الليل في وادٍ بهيم .. وهذا يخفف على المتخوّفينَ من فكرةِ الحديث أمام هذا الجمهور، على الأقل ستتكلم أمام أشباح لا تكاد ترى ملامحهم، و لا يكادون يرون منك إلا ما اسودَّ من خيالك، تسمعُ الشابَ يتكلم فلا تستبين من هو ولا تستدلُّ عليه إلا ببصمةِ صوته، الفوائد تنتثر هنا، تجلّتْ كثيرٌ من المواهبِ بفضل هذا البرنامج المُلفّق، بعضهم كان لأول مرّة يتحدث أمام جمهور كبير نسبيًا، كان يتحدث متدفقًا كالسيل يتحدّر من صبب ! أجزمُ أن هذا البرنامج الجميل كان مُنطلَقًا لأشخاص لم يكتشفوا أنفسهم إلا عن طريقه، وكان دليلًا للمشرفين يهديهم إلى مواهبَ رفيعةٍ ما كانوا ليكتشفوها لولاه .

› التفاعل في التواصل بالتراسل ..

يحرص المشرفُ دومًا على معرفةِ ما يجري في نفوسِ طلابه تجاه الحلقةِ أو تجاه مشرفيها وبرامجها وطلابها، فيعمدُ إلى استنطاقهِم والتفتيش في أعماقهِم بحثًا عما تكنّهُ أنفسهم من أسرار ومشاعر ومشكلات، فينجحُ المشرفُ الغوّاص مع البعض ويخفق مع البعض الآخر، وهذا أمرٌ مُعتاد؛ ذلك أن بعضَ الطلاب من الصعب استنطاقهُ واستخراجُ الحديثِ منه، وقد يعود السببُ لنوعِ المشكلة وطبيعة الانتقاد لا لذات الطالب، وما زلتُ أذكرُ أنّ "أبا فيصل" - يومَ أن كنّا طلابا وكان أميرًا لإحدى الرحلات - نما إلى علمه أن بعضَ الطلاب – وكنتُ منهم – يتهامسون فيما بينهم منتقدينَ حالَ أحد المشرفين، ولم نكن نملكُ الجُرأةَ الكافية لمجابهةِ أحدٍ بوجه انتقادنا له، فلما جنَّ الليل ونام الطلاب ولم يبق إلا "أبو فيصل" وبعض المشرفين، استدعاني "أبو فيصل" أنا ومحمدا، وطلبَ منّا الحديث دون خوف، ولم يسمح لأحدٍ من المشرفين أن يدخلَ علينا، فوجدَ منّا بعضَ

التردد، وبعد أخذٍ وردّ .. اهتدى إلى أمر ! انتزع ورقتيْن من دفتره الخاص بمتابعة شؤون الرحلة، وأعطاني واحدة ولمحمد مثلها، وقال : اخرجا واكتبا كل شيء قبل أن تناما .

وبالفعل .. وجدتُ أن التفاعل مع هذه الطريقةِ أفضل، فكتبتُ وكتبَ محمد، وسلّمنا الأوراق لأبي فيصل، فبرِئت الذمة .

وحينَ تولّيتُ الإشراف لاحقًا .. وجدتُ أن الطلاب مختلفون، بعضهم يستطيع الحديث والانتقاد والتشكّي دونَ خوفٍ و لا تردد، والبعضُ الآخر تمنعه بعض الحواجز، إما لطبيعة شخصيته أو لحساسية الموضوع والمشكلة، فكنتُ أطلبُ من الصنفِ الثاني أن يكتبَ ما في نفسه ثم يرسله إلى هاتفي أو بريدي أو أي وسيلةٍ أراها مناسبة، فوجدتُ جدوى ذلك وثمرته ..

> التمازج لا الانكفاء ..

في سنواتنا الأخيرة مع النوادي الصيفية ..ارتأينا أن تكون مجموعتنا كلها في أسرةٍ واحدة بدلًا من توزيع الأفراد على أسرٍ متنوعة كما كنا في السنوات السالفة، كنا نرى أن هذا أضبط لنظامنا ومجموعتنا – وهو رأي وجيه -، وبعد هذه التجربة .. رأيتُ أننا لم نكن على صواب ! إن كان لها إيجابيات .. فسلبياتها أكثر .. فمثلًا : ازدادت وتيرة التعصّب – من قِبَل المشرفين والطلاب – لمجموعتنا، كنا ننظر لبعضِ المجموعات في النادي نظرةَ تعالٍ، كنا نندفعُ في المناشط بحماسٍ يغذوه التعصّب لا التنافس الشريف، تقوقعنا على أنفسنا ولم نشأ أن نفتح قنوات للتواصل مع المجموعات الأخرى، في النادي لا نرى إلا أنفسنا، وخارجِه لا تجدُ إلا وجوهًا مكررة، قارنتُ الحال بوضعنا قبل سنوات حينما كنا نندمجُ في النادي / المركز مع مجموعاتٍ وحلقاتٍ أخرى، حيث يتوزّعُ الطلاب والمشرفون على أكثر من مجموعة، فتشعر بلذّة التنوّع وتغيّر الشخصيات والوجوه، مع وجود الحماسِ المنضبط، كنتُ أرى هذا السبيل أنفع وأمتع، ولكلٍ وجهة هو موليها .

تركنا النوادي الصيفية دهرًا، واخترنا أن ننعزل – في الصيف – في برنامج خاصٍ بالمجموعة لا يشاركنا فيه أحد، توصّلنا في نهايته إلى الفشل .. إلى الفشل العريض !

هربنا من النادي الصيفي حين ظننا أنه لا يلبي رغباتنا وتطلعاتنا، فوجدناه بعد ذلك خيرًا من البرنامج الخاص، كنا نتّهم النادي الصيفي بأنه ثقيلٌ على الطلاب والمشرفين معًا، فاكتشفنا أن البرنامج الخاص أثقل وأشد وطأة، وكنا نرمي النادي الصيفي بقلّة الفائدة ومحدوديّة الأثر ونحن نبحث عن أثرٍ لا حدّ له وفائدةٍ لا منتهى لها، فأدركنا أن آفاقه كانت أوسع بكثير من البرنامج الخاص !!

حين اخترنا البرنامج الخاص كنا نسعى – كمشرفين – أن نخفف العبء عن أنفسنا، فالنادي الصيفي يحتاج إلى جهودٍ كبيرة ينوء بحملها المشرفون، لكننا نسينا أننا في البرنامج الخاص سنكون ثلاثةَ مشرفين أو أربعة أو خمسة فقط أمام برنامجٍ يمتدّ إلى شهر كامل، بينما في النادي سيشاركك العمل والإنجاز أكثرَ من ثلاثين مشرفا يعين بعضهم بعضا، ويسد بعضهم نقصَ بعض، لقد أدركنا فيما بعد أن البرنامج الخاص كان أثقل بكثير.

أما الطلاب .. فالعدد في النادي الصيفي كبيرٌ يبعثُ في برامجه الحياة، ولم يكن الأمر كذلك في البرنامج الخاص، حتى إن البرنامج كلّه ليتأثر بغيابِ خمسةِ طلاب أو ستة، وغياب البعضِ وتخلّفهم عن البرنامج يحثُّ البعضَ الآخر على تركِ البرنامج والانسحاب منه .

كان المقرُّ في النادي الصيفي مجهَّزًا في الجملة .. وفيه من المرافق ما يحتاجه الطلاب والمشرفون في إقامةِ البرامج والفعاليات، بينما افتقدنا هذه الميزة في البرنامج الخاص، إذْ

لم نجد مقرًا متكاملًا لإقامة برنامجنا، كنا هائمين على وجوهنا .. تائهين هنا وهناك، وهذا الشتات أضعفنا كثيرا !

تركنا النادي الصيفي على أمل القيام بثورةٍ براجميّة تقضي على الرتابةِ التي عشناها زمنًا طويلا بين جدران النادي ، لكن شيئًا من ذلك لم يكن، بل الذي كان .. أننا خسرنا النادي الصيفي ولم نكسب البرنامج الخاص ! والعجيبُ حقًا .. أننا لم نؤب إلى صوابِنا بعد هذه التجربة المريرة، بل أصررنا على برنامجنا الخاص سنين عددا أبينا فيها أن نتوب، وفي كل سنةٍ يتكشّف لنا من الأخطاء ما يحثُّنا على العودةِ إلى أسوار النادي الصيفي .. لكننا في غيّنا نغور وفي سكرتنا نعمه ! قلتُ بعد ذلك : ليتَنا بقينا على ذلك العرَج – إن كانَ عرَجًا – ولم نُسلِم أنفسنا إلى الشلل التام .

› التفصيل في الخطّة عبث !

درجنا – ونحن نخطط لبرامج الرحلات – أن نُغرِق في تفصيل برنامج الرحلة، بينما نحن في الواقع لا نلتزم تمامًا بما كتبنا، فأي قيمةٍ لشيءٍ نرسمه ثم لا نترسّمه ..؟! مثلًا .. كنا نخطط هكذا :

الوقت	البرنامج	ملاحظات
٤,٠٠ – ٤,٣٠	صلاة الفجر	
٤,٣٠ – ٥,٣٠	درس تفسير	
٥,٣٠ – ٧,٣٠	برنامج رياضي	
٧,٣٠ – ٨,٣٠	إفطار	

وهكذا حتى نهاية الخطة؛ إذ تعتمد هذه الطريقة على توزيع البرامج على ساعات اليوم والليلة، وعلى تحديد وقت البرنامج ابتداءً وانتهاءً بدقّةٍ غير مطبّقةٍ في الواقع، وقد لاحظتُ من خلال مسيرةٍ طويلةٍ مع هذه الخطط .. أن الالتزام بها ضربٌ من المستحيل،

فعمدتُ إلى طريقةٍ جديدة وجدتها أكثرَ واقعية وأسهلَ في الإعداد من الطريقة الأولى؛ إذ جعلتُ من الصلوات مُنطلَقًا للبرامج بدلًا من الساعات، فكانت هذه الطريقة أكثر مرونة من الطريقة الأولى، وعند التطبيق .. ألفيتُها أسلسَ قيادًا من صاحبتها، ووجدتُ ارتياحًا من المشرفين تجاهها، وإليكَ مثالًا يوضح هذه الطريقة :

الوقت	البرنامج	ملاحظات
بعد صلاة الفجر	درس تفسير	
	برنامج رياضي	
	إفطار	
	راحة وقيلولة	
بعد صلاة الظهر	برنامج ترفيهي	
	غداء	
بعد صلاة العصر	برنامج رياضي	
بعد صلاة المغرب	موضوع ثقافي	
بعد صلاة العشاء	جلسة شبابية	
	عشاء	
	نوم	
	الوتر قبل الفجر	

لن تختلف معي في أن هذه الطريقة تعطي لأمير الرحلة ومن معه من المشرفين صلاحيّةً كبيرة في تحديد وقت ابتداء البرنامج وانتهائه، ولن يمسّ هذا التقدير المصلحيّ هيكل الرحلة أو البرنامج بسوء، بخلاف الطريقة الأولى! وأيضًا .. لن تختلف معي في أن الطريقة الثانية أسهل في الإعداد وأكثر واقعية في التطبيق من الطريقة الأولى .

› والتفصيل في البرنامج مضعفَة ..

فقد وجدتُ أن البرنامج إذا طُرِحَ وأغرقَ المشرفون في صياغةِ تفاصيله ومحترزاته، وأكثروا من التقعيد له وسنِّ أنظمتِه وقوانينه .. كان ذلك من أكبر أسباب ضعفه؛ لأنه كلما زادت التفاصيل .. ازداد الطلاب زُهدًا به، وهذا يكثر في البرامج التنافسية، فالنفس لا تنشط لحفظ التعليمات والتفاصيل والتفريعات، فليكن برنامجك واضحًا، وليكن قانونه مختصرًا ومنضبطًا، فإن وجدتَ فيه ثغرةً فلا مانع من التحديث وسنِّ قانونٍ يسدُّ الفجوة .

› الكلمات المحسوبة !

أراد أحد مشرفي المرحلة المتوسطة أن أصحبَه في سيارته لإنجاز مهمة تتعلق بمنشطه التربوي، ففعلت .. وانطلقنا من المركز الصيفي إلى وجهتنا، وفي معيّتنا أحد طلابه ليوصله إلى البيت، أصابتني سعلةٌ شديدة، وأخذتُ "أكحُّ" بشكلٍ متوالٍ، وحين توقفت .. التفتَ إليَّ صاحبي ممازحًا قائلا : (كم مرة قلت لك اترك عنك الدخان) قالها وهو يضحك .. فشاركته الضحك ! وكان الطالب في المقعد الخلفيّ ينصت بصمتٍ بريء ..

ومضت سنوات .. حتى أصبحَ هذا الطالب الصغير في عداد الشباب المؤثّرين في منشطنا التربوي، فأمسك بي ذات مرةٍ في حديثٍ أخويّ، وقال لي : لقد صدّقتُ ! كنتُ أظنك تدخّن فعلا !!

لم يكن هو الأوّل ! مرّتْ بي حالاتٌ كثيرة لطلابٍ – غالبهم في المرحلة المتوسطة – سمعوا كلامًا خرجَ على سبيل المزاحِ فأخذوه مأخذ الجدّ، لا أملكُ أن أُخطِّئهم .. فالسنّ له أحكامه، وليس لنا – كمربّين – إلا أن نزِنَ حروفنا قبل أن نجعل منها صوتا ! خصوصًا عند الصغار وعند المستجدّين . فإذا قلنا كلامًا يحتمل سوء الفهم – جادين أو هازلين – فلا بد من البيان الذي يقطع التخرصات والظنون .

› سِحْرٌ مُجَرّب !

جربتُ أن أقول – غير ما مرة – لعددٍ من الطلاب : "أنت تشبه قريبي فلانا"، "أنت تذكّرني بفلان" وما شابَه ذلك من العبارات .. فوجدتُ أثرها في نفس المتلقّي كبيرا، حتى إنه ليشعر بقربه منك وانسجامه معك، عملٌ قليل وأثرٌ جليل ..

› من عالَجَ أدرَك ..

قال لي مرةً مُستنكِرًا ولائمًا : "لمَ يعمل المشرفون في الميدانِ زمنًا ثم ينقطعون؟"، قلتُ :"وماذا تريد منهم؟"، قال : "لابد من الاستمرار في المجال التربوي حتى تتحقق الغاية المرجوّة بأفضل وجهٍ ممكن"، قلتُ : "لكل زمان رجاله، والمرء قد لا يطيق الاستمرار في عملٍ كهذا أمدًا بعيدا، والظروفُ ترمينا هنا وهناك، ولو افترضنا أنه لا ثمة ظروف .. فإن الإنسان بطبعه يملّ، ولابد من التغيير" .

لم يعجبه جوابي .. فاختار أن يصمت ويزمّ شفتيه!

ومضى زمنٌ .. وأتت رحلتنا إلى "أبها" .. ولاحظ صاحبي أن عدد مشرفي الرحلة أقلّ من المعتاد، فأبدى لي استعداده للمشاركة معنا حتى يسدّ النقص، لم يكن حينها مُلزَمًا بذلك؛ فقد كان مرتبطًا بمجموعةٍ أخرى، وكانت هذه المجموعة لها رحلتها المستقلّة، لكن من حُسنِ حظّنا أن عودتهم من الرحلة ستكون في زمنٍ يناسبُ صاحبَنا لينخرط معنا، إذ كان موعد عودتهم قبل موعد انطلاقتنا بأسبوع أو أقلّ، فلما عادوا من وجهتهم، هاتفتُ صاحبي لأؤكد عليه ما وعَد، لكنه اعتذر .. وأخبرني أنه مُنهَكٌ من سفرته الأولى ! أردتُ حينها أن أقول له : "ألم أقل لك..؟" أنتَ تعبتَ في رحلتك الصغيرة، وهم قبلَك أنهكتهم رحلتهم الكبيرة، والقياس هنا مقبول، فاعذُر .

و أنا أعني .. هذه المرحلة التي نمرُّ بها وأنا أكتب هذه الأسطر، مرحلة استعار الغلوّ وانتشاره في محيط الشباب بشكلٍ لا عهدَ للمجتمع به ! باتَ الأب – ومعه الأم – يخشى على ابنه من التوحّل في مراغةِ هذا الفكر الوبيء، وينظر للمجموعة التي تصحب ابنه – ما لم يثق بها – نظرة التردد والريبة، وقد مرّ بالحلقات والمجموعات التربوية زمانٌ عانوا فيه من هذه النظرة .. وها هو الزمان يعود ويستدير فلا بد من حُسنِ التصرف حتى لا يتكرر الخطأ .. وخيرُ طريقٍ وأقوم سبيل .. أن تكون – كمحضن – واضحًا في التعاطي مع منزل الطالب وأسرته، وأن تترك الغموض- ولو بغير قصد -، ولا يختلف اثنان في أن الوسائل التي تعين على الوضوح باتت في زماننا أكثر منها في الزمان الأول، لا سيما وسائل التقنية التي صارت تظهر المخبوء وتفضح المستور، فما مدى توظيفنا لهذه الوسائل في إظهار رسالتنا وبرامجنا وأهدافنا ..؟ إن لم يكن لإبعاد الريبة والشك عن محضنك المبارك .. فليكن لإحلال السكينة في قلوب الآباء والأمهات .

لا تدع فرجات للشيطان .. إن سُئلتَ عن أمرٍ فأجب دونما تردد .. من أنتم ..؟ ماذا تريدون من أبنائنا ..؟ ما هي مناشطكم ..؟ ما مصادر تمويلكم ..؟ ماذا تفعلون من بعد العصر إلى صلاة العشاء ..؟ أين تذهبون في إجازة نهايةِ الأسبوع ..؟ أي شيءٍ تلقّنونه أبناءنا في رحلاتكم وأسفاركم ..؟

كل هذه الأسئلة وغيرها .. تتجاوب أصداؤها في أذهان الآباء والأمهات، والمحضنُ الحصيف هو الذي يجيبُ على هذه الأسئلة قبل أن تُوجَّهَ إليه، وهو الذي يزرع الطمأنينةَ في بيت الطالبِ منذ اللحظةِ الأولى، ومن يؤتَ الحكمةَ فقد أوتيَ خيرًا كثيرا ..

وقد وقفتُ على نماذجَ مشرّفة لمجاميع تربويّة كانت في غايةِ الوضوح وهي تتعامل مع الطالبِ وأهلِه، لا تتوانى في الإجابةِ عما يدور في أذهان الأهالي من الأسئلة، ولا تتأخر

في مواكبة التقنية وتوظيفها في ذلك، وكان تفاعل البيت مع مناشط الحلقةِ محمودا مشكورا، حتى في الأسفار .. يخصصون حسابًا تواصليًا ليتابعَ الأهالي مناشطَ أبنائهم عن بُعد، ماذا يفعلون ..؟ ومَن يلتقون ..؟ وأينَ يذهبون ..؟ والأهل مسرورون مغتبطون متفاعلون ! وهكذا فلتكن المحاضن !

> فمن لم يستطع ..؟

المال هو الوقود الذي يُحرّك برامج الحلقات ويدعم مسيرتها، وبدونه تتأخر المسيرة وتتراخى .. وبعض هذا المال مصدره يكون من الطلّاب، يُحصَّل على شكل رسوم فصليّة أو شهرية أو بحسب البرنامج، والطلاب يتفاوتون في قدرتهم على تغطية هذه التكاليف ما بين مقتدرٍ وعاجز، وذلك بحسب ملاءتهم المادّية من جهتهم أو جهةِ أهليهم، وعدم قدرةِ البعض على سداد الرسوم المطلوبة واردٌ وليس بغريب، وكلنا يعلم ذلك ..

والمشرفُ النابه يتفطن لهذا ويجعله حاضرًا في حساباته، فهذه من المواطن التي يحسن بالمشرف العنايةُ بها وعلاجُها دون أثرٍ يبقى؛ فليُعفَ العاجز من أداء الرسوم بطريقةٍ تحفظ له كرامته .. وهنا موقفان عالقان :

- الأول : ونحن طلابٌ في المرحلة المتوسطة .. انتخب المشرفُ عددًا من الطلاب وجمعهم في اجتماعٍ مُغلق، ذكّرنا في الاجتماع بأننا على أبواب رحلةٍ تعبّديّة إلى "مكة"، وأن الجميع سيشارك سوى طالبيْن اعتذرا لأنهما لا يملكان القدرة على سداد رسوم الرحلة، ثم قال : (عسيرٌ علينا أن يتخلّف عنّا اثنان من خيرةِ الطلّاب بسبب المال، فهل أجدُ منكم مَن يسعى في السداد عنهما ..؟) لم يكن الطالبان ضمن الحاضرين في هذا الاجتماع؛ حِفظًا لكرامتهما وسترًا لحالهما، وكان المشرف بلا شك .. يهدفُ إلى تعميق التكافل الأخوي في نفوسنا، كان هدفه نبيلًا وراقيًا، لكنني لاحقًا وبعد مضيّ زمن .. لم

ترُق لي طريقته رغم نُبل الغايةِ والهدف، ألم يكن من الأوْلى أن يُنهيَ هذا الأمر دون أن يكشفَ لنا سترهما ..؟ خصوصًا وأننا صغار، والصغير سريعٌ في إذاعةِ الأخبار.

- الثاني : همَّ المشرفون بإقرار رسوم فصليّة على الطلاب؛ ليستعينوا بها على برامج الحلقة وتكاليفها المادية، فتوقّف أحد المشرفين في اتخاذ هذا القرار، لم يكن توقّفه رغبةً عن الفكرة ولا رفضًا لها، فهو يدرك أهميتها .. لكن بادَرَنا فقال : (وماذا عن فلان ..؟ كيف سيدفع ٣٥٠ ريالًا وأنا أعلم من حاله أن أباه لا يستطيع ..؟ أجار شقة .. وقرض سيارة .. وأولاد وبنات يطلبون .. وراتبٌ لا يفي) أجابَ أحدهم على الفور : (يُعفى ويُؤخَذ من البقية .. وينتهي الأمر) ردّ صاحبُنا : (ليتَ الأمر ينتهي بهذا اليُسر، كيف لنا أن نعفيه دون أن نخدش قلبَه وشعوره ؟ دون أن نُشعِره بالنقص والقصور ؟) وجمَ الجميع .. يا للأُخُوّةِ والإحساس المُرهَف، قال ثالث : (هذه عَلَيَّ .. اتركوه لي وامضوا في فكرتكم) .. بعدَ مُدّة .. أقام أخونا "الثالث" مسابقةً ورقيّةً في أول الفصل الدراسي، وجعل جائزة الفائز فيها أن يُعفى من الرسوم المُقررة، وفي اليوم الموعود لتحديد الفائز .. أعلن أن ثلاثةً من الطلاب وصلوا إلى المرحلة النهائية، وأن القرعةَ ستختار فائزا واحدا فقط .. استدعى طالبًا من الطلاب بشكل عشوائي، ثم أخرج من جيْبه ثلاث ورقات مُغلَقة، وطلبَ من الطالبِ أن يختار ورقةً واحدة، فاختارَ .. فكان الفائز صاحبنا المُعسِر !!! ما هذه الصدفة العجيبة ..؟ بعد حين .. أخبرَنا أنه لم يصحح ورقةً واحدة !! ولا يدري مَن كان يستحق الفوز حقًا !! وماذا أيضًا أيها المراوغ ..؟ كانت الأوراق الثلاثة – أثناء السحب - تحمل اسمًا واحدًا فقط .. كرره في كل ورقة !!! وهكذا فليكن العبث الحميد .. لك الله يا أخي !!

› أبى أن يكون ..

لا تكاد تخطرُ لي فكرة أو يعنّ لي مشروع إلا وبادرتُ إلى تقييده حتى لا يضيع في زحمةِ الحياة، فإذا صفا الذهن واعتدلَ المزاج .. قلّبتُ ما كتبت من المشاريع والأفكار،

فاستبعدتُ منها ما لا يحسُنُ أن يكون همًّا، ثم أبقيتُ على ما يستحق، وبدأتُ في الإنجاز بحسبِ ما أستطيع، وجدتُ أنه لم يبقَ لي من مشاريع الكتابةِ التربوية سوى مشروعٍ واحدٍ أبى أن يكون، بدأتُ في العمل عليه ثم تعثّرت .. وحين أدركتُ أنني لن أدرَكه سلّمتُ فكرتَه إلى جمعٍ من الأحبة عسى أن يتحقق على أيديهم .. فلم تتقدم عجلَةُ المشروعِ سوى خطوات وئيدة ! وها أنا أطرحه هنا .. عسى أن يجدَ همّةً شغوفة وعزمًا صليبا ..

كان المشروع يقوم على فكرة "مجموع فتاوى" يجيبُ على كلِّ الأسئلة الشرعيّة التي يحتاجها المحضن، فيكون مرجعًا علميًا للمشرفين يتدارسونه باستمرار، ويرجعون إليه عند الحاجة، حتى تنقاد التربيةُ لنور العلم، ولا خيرَ في تربيةٍ لا تمتاحُ من هذا النور ..

و لا تتعلق الأسئلة بمسائل العبادات فحسب، بل تتعدى ذلك إلى كلِّ ما يمكن أن يكون محل استشكالٍ شرعي في حياةِ المحضن، من عباداتٍ أو معاملاتٍ أو قضايا تربوية ! ولا شك أن المحضنَ يمرُّ بثروةٍ من الأسئلة والإشكالات التي تحتاج إلى علمٍ يكشفُ حُجُبَها، وقد يصل معها "مجموع الفتاوى" إلى مجلَّدٍ ضخمٍ أو أكثر، ولسوفَ أضربُ أمثلةً على أسئلة يحتاج المشرفُ إجابتها وهي مظنّةُ سؤال الطلاب، أو يحتاجَ إجابتها ليبيّنَ الحُكمَ ابتداءً ولو لم يُسأَل، وقد يحتاج إجابتها ليستنير بها في مسيرته التربوية .. مثلًا :

- هل الأوْلى إذا دخلَ الطالب / المشرف المسجد الذي تقام فيه الحلقة أن يسلّم على أصحابه ويصافحَهم أم يبدأ بتحيّةِ المسجد ..؟
- هل يجوز للمشرف أن يفشي للمشرفين سرًّا استودعه إياه أحد الطلاب إذا كان في إفشائه مصلحة متحققة ..؟

- استأجرنا استراحةً فتعطّلت إنارتها عدّةَ ساعات، ولم نستفد من مرافقها بالشكل المخطط له، فهل لنا أن نمتنع عن دفع الأجرة ..؟
- ما الحكم في أن يقوم المشرف بعملٍ صالح – لا يعمله عادةً – أمام طلابه حتى يُقتدى به، مستشعرًا أن هذا يؤثر في الطلاب أكثر من الكلام !؟
- هل يجوز لأمير الرحلة أن يوقع عقوبةً بدنيّةً أو ماليّة على فردٍ خالفَ تعليمات الرحلة ..؟

كل هذه الأسئلة وغيرها كثير مما يمر بي وبك وبالبقية .. تحتاجُ إلى إجاباتٍ شرعيّةٍ مُطعَّمةً بالتوجيه التربويّ، وحينها .. لا تسَل عما سيتحقق وراء ذلك من عظيم الفائدة وحُسن التوجيه .

هذا .. و لا أعرفُ أحداً طَرَق هذا المجال سوى الدكتور "عادل العبدالعالي" في كتابٍ له باسم (فتاوى في تربية الشباب) وقد جمع الفتاوى من مؤلفات وأشرطة العلماء الكبار (ابن باز - ابن عثيمين - ابن جبرين)، إلا أن عليه ثلاثة مآخذ :

١. أنه غير معروف ولا منتشر، خصوصًا عند المعنيّين به .

٢.أن عهده قديم، وقد استجدت المسائل بعده، والتربيةُ تتجدد .

٣.أنه مُقتبَسٌ غيرُ مُؤسَس، وشتان بين الأمرين .. فالمصنّف اقتبسَ من فتاوى العلماء ما يراه مناسبًا للمجاميع التربويّة ويمسّ حاجتها، ولو أنه جمعَ استشكالات التربويين وأسئلتهم لكان أجدى وأعظم نفعا.

ولقد أوعزتُ إلى بعضِ المهتمين بقضايا التربية أن يتبنّوا هذا المشروع، وأخبرتُ بعضَهم أنه لو لم يخرج من حياته التربوية إلا بهذا العمل لكان شيئًا جليلا، إلا أن الظروف حالتْ بينهم وبين إنجاز هذا ! فبقيَ المشروعُ مُعلَّقًا حتى حين !

وبعد ما مضى .. فإنه من شاءَ منكم أن يعملَ على هذا المشروعِ الجليل، فليجعل نصْبَ عينيه أمورًا، أُجمِلها في الآتي :

١. لا تستعجل الإنجاز .. فإن العجلَةَ تورث النقص .
٢. لا تعمل وحيدًا .. ولكن وطّن نفسكَ على الوحدة، ضع في الحسبانِ أنك قد تصل وليس معك أحد .
٣. لتحرص أن يجيب على الأسئلةِ طالب علمٍ له باعٌ في الميدان التربوي؛ وذلك لأمرين :
   أ. حتى يتصوّر المسألة تصوّرا سليما.
   ب. حتى يُملّح جوابه بتوجيهٍ تربوي يتمم به الفائدة .
٤. إن كان في المسألةِ خلافٌ وجيه فليُبيَّن؛ حتى يعذر الأخ أخاه إن خالفه في الاختيار.

وأنا أعتقدُ اعتقادًا يشبه الجزم .. أنه لو صحّت النيّة مع العمل الدؤوب فإنه يكفي لإنجاز هذا العمل ثلاث سنوات على الأكثر، وهي مدة ليست بالطويلة، فيا لهناء من سدّ ثغرةً في الصرح، له أجر ذلك وأجرُ من استفاد، وعلى الله التكلان وهو المستعان وحده.

› المُربّي الذي لم يفهم الرسالة ..

قال لي صاحبي : بدأ برنامج المذاكرة في الجامع القريب .. كنتُ حينها في الصف الثاني ثانوي .. وكعادة حلقتنا مع كل برنامج مذاكرة، يتغيّر توزيع الطلاب على سيارات المشرفين.. بحيث يقوم كل مشرف بمرور أقرب الطلاب إلى بيته؛ كي يستثمر الجميع كل لحظة في المذاكرة دون تأخر، ويحصل أن يستعين المشرفون ببعض الطلاب الناضجين (٣ث) في عملية المرور؛ من أجل تخفيف الضغط على المشرفين، وتقليص المدة التي يأخذها مرور الطلاب إلى أقصر مدة ممكنة !

كان المشرف "أبو محمد" موكَّلا بي أنا وقريني "محمد" .. وثلاثتُنا نقطن أحياء متجاورة ! وبيننا ألفةٌ كبيرة جدا ، حيث سبق لنا أن اجتمعنا في سيارة واحدة عدة مرات ..

في أحد أيام البرنامج .. وصلنا للمسجد وكنا أول الواصلين من بين السيارات الأخرى ، نزلتُ ومحمد ، وقال لنا المشرف : (انشغلوا بالمذاكرة .. عندي شغل سأنجزه ثم أعود) ، "البروتوكولات" الإشرافية تقتضي أن ينتظر المشرف ويبقى معنا حتى يأتي مشرفٌ آخر يتابع سير البرنامج، كله من أجل أن لا يختل نظام البرنامج بعبثٍ أو تلاعب، و لأجل أن يتدخّل المشرف إذا حدث أمرٌ يقتضي تدخّله! لكن يبدو أن مشرفنا "أبا محمد" كان منشغلًا بشكلٍ لا يستطيع معه أن ينتظر حتى يأتي مشرفٌ آخر، أو أنه كان يولينا ثقةً كبيرة جعلته يخرق هذا البروتوكول ..

بدأنا بتحية المسجد ثم أخذت كتابي ومكاني .. وكذلك فعل "محمد"، كل شيء على ما يرام، بعد ربع ساعة تقريبا .. سمعنا صوت محرّك سيّارة عند الباب، من المؤكد أنه أحد المشرفين ومعه أفراد سيارته، فجأة .. هبّ "محمد" من مكانه وقال لي وهو يتجه صوب الباب حيث السيارة : (هذا أبو عاصم جاء) .. مباشرة تركت الكتاب وقفوت أثر "محمد" !

"أبو عاصم" في ذلك الوقت = مشرف أزمات !! بمعنى : لا نراه دائما ، ولا يمرّ مع المشرفين .. لكن إذا حصل ظرف لأحد المشرفين فاعتذر، كان "أبو عاصم" مكانه، وهذا شيء يناسبُ شخصًا يحب العمل مع "الشباب" لكنه لا يستطيع ذلك بشكل مستمر؛ بسبب ظروفه ..

خرجنا من المسجد للسلام عليه، ودخل من معه من الطلاب ليشرعوا في المذاكرة، تجاذبنا معه أطراف الحديث عند باب سيارته.. حتى جاءت سيارة مشرفٍ ثالث فأنهينا الحديث ثم دخلنا المسجد واستأنفنا المذاكرة !

بعد المغرب .. طلبني "محمد" وقال : (المشرف فلان يحتاجنا في موضوع) ! عجِبتُ .. هذا المشرف ليس هو أمير المذاكرة ، وليس هو المشرف العام على حلقة الثانوي ، إنما مشرفٌ من عرض المشرفين .. ماذا يريد ؟! اللّٰهُمَّ خيرا !!

بانَ الأمر .. إنها جلسة تحقيق ! فهو المشرف الذي رآنا مع "أبي عاصم" عند باب المسجد .. بدأ : ألستم وصلتم أوّلًا مع المشرف فلان ؟! لماذا خرجتم من المسجد ؟! لماذا انشغلتم بالحديث مع "أبي عاصم" ؟! ألستم في برنامج مذاكرة يستوجب انشغالكم بها ؟! لماذا التسيّب ؟! .... ؟!!! .... !؟ .... ؟!!! وكلام كثير لا تفهم منه سوى حُبّ التسلّط والتفرعن .

يا لـ هذا المشرف السليط ! ما الموبقات التي اقترفناها حتى يُحدِث هذا المشرف كل هذا الضجيج !؟ ثم إن كان في الأمر خطأ - ولا خطأ - .. فالعتب على "أبي عاصم" حين لم يزجرنا، وهو أولى بالتثريب منا ! أُفٍّ لك .. ليست هذه أول مخازيك !! ظهر لي أنه انتزع تفويضًا من أمير المذاكرة ذي الشخصية الضعيفة بمتابعة هذه القضية؛ كي يملأ وقت فراغه بشيءٍ يؤنسه .. وما أكثر ما يشعر المشرفون بوطأة الفراغ في برنامج المذاكرة .. بحكم جداولهم الجامعية التي تختلف عن جداول الطلاب تقديمًا وتأخيرا .. .

ختم تحقيقه معنا بضرورة إيقاع العقاب علينا؛ حتى لا نكرر الخطأ وحتى نكون عبرة لمن وراءنا من الطلاب !!! فقال : (تأهّبا بعد صلاة العشاء) !! انتهى التحقيق ومشيتُ أنا و"محمد" معًا ، لم يكن "محمد" مكترثًا ، بل كان يهوّن الأمر ويأخذه مأخذ الهزل ! أما أنا فأعرف هذا المشرف السليط جيدًا ، ولئن لم يردعه مشرفٌ عاقلٌ أكبرَ منه ليفعلنّ ما لا يُحمد !! أما أمير المذاكرة فشخصيته ضعيفة تأثيرها محدود، وأما المشرف العام "أبو محمد" فلم ينته من شغله بعد ولا أثر له هنا .. سلّمنا أمرنا لله .. فالله خيرٌ حافظا وهو أرحم الراحمين .

وصلينا العشاء .. وبعد أن هدأ المسجد وتفرق المصلّون .. استدعانا المليح !! حانَ موعد العقاب .. لا عاقل يردعه .. مشينا خلفه حتى خرج من المسجد ، اتجه إلى سيارته وفتح "الشنطة"، وقال بحزمٍ عريّ من المروءة : (سعد خذ .. محمد خذ .. كل واحد منكما يملأ هذا "السطل" بالماء والصابون ، ثم يأخذ الاسفنجة من داخل السيارة .. أنت يا سعد غسّل سيارة فلان ، وأنت يا محمد غسّل سيارة فلان - كلاهما من المشرفين -) ماذا يقول هذا السليط ؟!! تسمّرتُ أنا و"محمد" ، نظرنا إلى بعضنا مشدوهين .. ضحك "محمد" ضحكة استخفاف وهو يحدّق فيّ !! كان "محمد" أشجع منّي فبادر بالرفض ، تشجّعتُ وشاركته الرفض ! ما هي الجريمة التي اقترفناها حتى تعاملنا بهذه الطريقة البهيمية ؟ لم يكن الرفض لأننا لم نقتنع بخطئنا فحسب .. بل هناك أسباب أخرى تجعل من إيقاع هذا العقاب حماقةً حتى وإن كنا مخطئين حقا .. فنحن في الاختبارات النهائية للفصل الأول ، وإشغالنا بشيء كهذا عن المذاكرة انحرافٌ وشطط، كما أننا في فصل الشتاء .. وهذا العمل قد يعرضنا للحُمّى والمرض !

ذكرنا له ذلك لكنه أصرّ على التنفيذ .. لم يتوقع المشرف ردّة الفعل هذه .. كان يظن أننا سنُسلِم له القياد، وفي غمرة الأخذ والرد جاءه اتصال هاتفي.. فانشغل عنا بالمكالمة، استثمر محمدٌ الفرصة .. فالتفتَ إليّ وقال : (إياني وإياك ترضخ له .. استمرّ في الرفض) لك الفضل يا "محمد" ! كان مثل هذا الرفض في ذاك الزمن رفضًا جريئا ، قد يؤدي لاستبعادك من الحلقة إذا عُدمت حكمة المشرفين .. لكنه الصوت الحُرّ لا يحبسه خوفٌ ولا تردد ! طال السجال بيننا وبين المشرف ، لم يكن يريد لهيبته أن تسقط ! فألحّ إلحاحًا شديدا فكان رفضنا أشدّ ..

شعر "محمد" أنه أوقع المشرف في حرج - هكذا بدا لي - ، وهذا الحرج لن يجعله يتراجع عن تنفيذ العقوبة ، فقدم "محمد" تنازلًا حكيما عسى أن يجعل المشرف يتوقف عن هذا الإصرار فيجد له خط رجعة .. أما أنا فأسلمت أمري لمحمد وما يراه مناسبًا فأنا معه ،

فهو أميري حتى تنقضي المشكلة .. قال "محمد" للمشرف : (لا مانع من تنفيذ هذه العقوبة لكن مع التأجيل إلى وقتٍ آخر يتحدد لاحقا، فالوقت الآن غير مناسب بحكم الاختبارات، وبحكم الأجواء الباردة) ، ارتخى المشرف ولانَ رأسه ، وأدرك أن هذه الفرصة هي الأنسب لحفظ ماء وجهه، وأن خط الرجعة باتَ ميسورا .. فزمّ شفتيه .. كأنه يفكّر في الأمر ، ثم قال : (لا بأس ، عودا إلى المسجد وسأنظر في الأمر) ..

و انتهى برنامج المذاكرة ، ومرّت الأيام .. ولم تُنفَّذ العقوبة في حقنا ! وبعد سنوات - لما صرت مشرفا - عرفتُ لمَ رُميَتْ هذه العقوبة في أطواءِ النسيان رغم أن صاحبَنا لا ينسى ثأره ، حيث قال لي أحد المشرفين : (يا خالد تذكر قصتك أنت ومحمد مع المشرف فلان في قضية غسيل السيارات ؟) ، قلت : (نعم) ، قال : (المشرف "أمين" — من المشرفين الكبار العقلاء - اجتمع بالمشرفين و "غسل شراعهم" بسبب هذه القضية) الله يا "أمين" الله الله .. ما خابَ الظنّ فيك ، كنتَ أمينًا وستظلّ بإذن الله .. لله درّ العقلاء المصلحين ممن حملوا الأمانة فرعوها حق رعايتها ..

› وبعد ذلك .. تخييمٌ وموقفٌ نبيل !

ثم قال لي صاحبي : بعد برنامج المذاكرة بأسابيع .. تقريبًا في منتصف الفصل الدراسي الثاني ، قامت الحلقة بإقامة المخيم الربيعي ..

جاء اليوم الثاني من التخييم وشعرتُ بشيء من الفراغ - تحديدا بعد الظهر - ، لا أدري إن كان المشرفون تعمدوا وجود هذا الفراغ أم لا !؟ المهم .. بحثتُ عن "أبي محمد" (وهو من أحب الناس إليّ وله عليّ فضلٌ كبير .. وأثره في شخصيتي ظاهر) وطلبتُ منه أن يسمح لي بغسيل سيارته "الكرسيدا" !!! لا أدري لمَ طلبتُ هذا .. أحسبُ أنه لم يكن من باب تقطيع وقت الفراغ، بل كان نكايةً بالمشرف الذي تسلط علينا أيام المذاكرة .. إذ كان مشاركًا معنا في المخيم ! فها أنا - أيها السليط - أغسل بإرادتي سيارة المشرف الذي

أحبّ دون إملاءاتك البغيضة .. وإلا فما جدوى أن أغسل سيارةً في هذه الصحراء المترامية والماء شحيح ..؟؟ .

رفض "أبو محمد" هذا الطلب وتمنّع، وكأنه رأى أن في هذا العمل حطًّا من قدري .. كان "عبدالعزيز" - أصغر مني بسنة - يسمع هذا الحوار ، فـ "دخل على الخط" و ألحّ على "أبي محمد" أن يوافق ، وذكر أنه يرغب أن يشاركني في هذا العمل .. وبعد طول مداولةٍ ومراجعةٍ وأخذ وردّ .. وافق شيخنا بشرط .. أن يكون العمل بمقابل ماديّ ، وافقتُ ووافق "عبدالعزيز" وفي نفسي أني لن آخذ منه شيئا ..

بدأنا العمل معًا في غبطة وسرور، ولو لم يكن منه إلا تمضيةُ الوقت لكفى به ! بدأنا مهمة الغسيل بعد الظهر .. فلما أقبل العصر شارفنا على الانتهاء، ثم انتهينا تماما على الأذان أو بعده بقليل، بعد الصلاة والغداء .. استدعاني "أبو محمد" واستدعى معي "عبدالعزيز"، جاء وقت الأجرة .. دخلنا الخيمة وما زال "عبدالعزيز" خارجها ، أخرج "أبو محمد" من جيْبه مبلغًا فامتنعتُ عن قبضه، ألحّ فرفضت .. ذكّرني بالشرط فتجاهلت .. شعر "أبو محمد" أن "عبدالعزيز" سيدخل الخيمة الآن .. فقال لي بصوتٍ خفيض : (خذ المبلغ الآن قدّام الرجال عشان ما ينحرج وبعدين نتفاهم .. ما يصير ترفض وهو ياخذ .. شينه في حقه) كان كلامه حكيما، وبالفعل استلمتُ المبلغ و"عبدالعزيز" يرى ذلك، ثم أخذ "عبدالعزيز" أجرته بناءً على الشرط ! وبعد مدة أعدت المبلغ للشيخ بعد طول إلحاح !

قال الراوي : الله يعلم أن هذا الموقف رسخَ في ذهني ولم تدفنه رياح النسيان، انظر إلى قضية مراعاة نفسيّة الطالب والحرص على ألا تُمسّ مشاعره بسوء، و اللهِ ما زلنا نحب "أبا محمد" من قبل و من بعد .. و أثره فينا كبير، وحين تفتّش عن السبب .. تجد أكثره وأكبره في سموّ المعايشة الذي كان يمارسه معنا .

› تركه ما لا يعنيه ..

يندفع بعضُ المربّين في التفتيش عن أخطاء تلاميذه ومواطن الخلل فيهم، بعضهم يفعل هذا بدافع الفضول وهو نادرٌ وممقوت، والبعض الآخر يتغيّا بذلك الإصلاح والتقويم، أما الأول فلا حاجةَ للحديث عنه فالضلالة فيه ظاهرة، وأما الثاني فخللٌ في فهم الرسالة ، وجنوحٌ عن سمتِ الشريعة، وإلا فالأصل أن يُعامِل المربّي تلميذَه بناءً على الظاهر فحسب، فإن بدا من تلميذه حيْدَةٌ بادَرَ فرمّم صدعه، دون تحسس ولا تجسس .. فإن احتجَّ المربّي بصحّةِ هدفه حين تجسس، قيل له إن الغاية المحمودة لا تبرر الوسيلة الفاسدة، والنهي عن التجسس صريحٌ وعامٌ وواضح، واختلفَ العلماء في بعضِ الحالات .. ولا يدخل التجسس على المتربّي وتَتبُّع حالِه في واحدٍ منها . قال ابن مسعود – رضي الله عنه - : (إنا قد نُهينا عن التجسس، ولكن إن يظهر لنا شيء نأخذ به) [رواه أبو داوود وصححه الألباني]، وقال مجاهد – رحمه الله - : (خذوا ما ظهر لكم، ودعوا ما ستر الله).

› السلام النفسي ..

ومن عجبٍ .. أن البعضَ ممن عرفت من المشرفين يصنعُ الحواجز بينه وبين الطلاب حتى تبقى هيبته حاضرةً في قلوبهم، لا يريد ممازحةً ولا ما هو أعلى من ذلك أو دونه ! وابتساماته تُعدُّ على أصابع اليد الواحدة، بل .. ويتلذذ بذلك ويراه رأس الحكمة وأساس التربية !!

والأعجب .. أن بعضَ المشرفين الكبار يتخذ هذا الأسلوب مع مَن تحتَه من المشرفين، ويأنسُ متى ما علم أن فرائصهم ترتعد لذكره وأضراسهم تصطك لمرآه !! و لا والله ما طرقَ بصنيعه هذا باب الحكمة ..!

لِتعلم أخي المربّي .. أن السلام النفسي بين أفراد المحضن ومشرفيه هو أساس نجاح رسالةِ المحضن، ولو استطلعتَ في ذهنك ما مضى من حياتك "الحلقاتيّة" لوجدتَ أن أقدَر المشرفين على التأثير فيك مَن كنتَ تعيشُ معه أرقى حالات السلامِ النفسي، مَن أعطاك من جميل روحه وأخلاقه وطباعه ما جعلك تبذل له روحك وقلبك وتقول له بلسان الحال : ازرِع ما بدا لك، وانزِع ما بدا لك، لا أخاصمك أبدا .

ومثله يقال لمن كان تحت قيادته جمعٌ ممن يصغره من المشرفين، إياك أن تجعل تعاملك معهم يقوم على الرهبة، فإن الرهبة بيئةٌ لا تُثمِر، فإن أثمرتْ فثمرٌ لا طعم له .

فإن قلتَ : أخشى إن أزلتُ حاجز الهيبة أن يتجاوزَ بعضهم . أقل لك : أنت مَن يزِنُ الأمور، اخلق حواجز متنقّلة تضعها في المكان والزمان الذي تريد، ولا تكن جامدًا فتخسر .

› المشرف العملي .. صبرٌ جميل والله المستعان !

الشخص العملي مرهقٌ بقدر ما يُنتِج ! وشخصيتُه تميل إلى الصِّدام وكثرةِ العتاب والمحاسبة؛ لذلك .. تجده يعيش مع فريق العمل علاقاتٍ متوترة أو على حافة التوتر، وقد ينفجرُ حين يجد في فريق العمل مشرفًا غير مبالٍ ولا مكترث، وتزداد صعوبة التعامل مع المشرف العملي حين يكون هو رأس المجموعة وقائدُها، وقد يصل الأمر إلى انسحاب بعضِ العاملين من ميدان العمل بسببه، هروبًا من التدقيق والتحقيق والمحاسبة والمساءلة .

وقد وصلتُ إلى أن التنازل عن بعض النجاح في سبيل بقاء فريق العمل متلاحمًا متجانسًا هو الأليَق بعملٍ مبناه على الاحتساب، والواقع .. أن المحفزات المادية المحسوسة على العمل في المحاضن التربويّة تكاد تنعدم، فإن وُجدت .. فإنها لا تساوي حجم الجهد

المبذول من قِبَل المشرف، فكيفَ يُطالَبُ بالكمال أو قريبٍ منه وهو مُحسِنٌ مُتبَرّعٌ بجهده ووقته ..؟ (مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ).

فإن قيل : لستُ بحاجةٍ إلى مشرف ضعيف الانتاج متبلّد الحسّ ! أقل لك : إن وجدتَ أفضلَ منه فلَك أن تقولَ هذا ! ثم لك الخيار بعد ذلك في أن تُبقي المشرفَ الضعيف مع تكليفه بعمل يطيقه أو أن تسرّحَه بإحسان، والأول أولى .

› قبلَ أن يجفّ عرقه !

معلومٌ أن المشرف الجامعيّ يعيش على مكافأته الجامعية، والسائد أنه لا يملك مصدر دخلٍ له سواها، ويحصل كثيرًا أن يدفع المشرف من ماله الخاص مبلغًا لمصلحة أنشطة المحضن على أن يسترده لاحقًا من ميزانية المحضن، والذي يكون .. أن المسؤول عن ميزانية المنشط يهمل تسليم المبالغ لأصحابها، أو يُؤخّر ذلك كثيرا، وهذا من شأنه أن يرهق ميزانية المشرف ويجعلَه يتهرب من بذل ماله عند الحاجة، وهذا دعانا إلى أن نقوم بفرز مستحقات المشرفين بشكلٍ أسبوعي، فمن كان له مالٌ في ذمة المحضن فإنه لا يمرُّ عليه أسبوعٌ إلا وقد استلم حقّه كاملا، وهذا أمان ماديّ مهم بالنسبة لطالبٍ لم يزل على مقاعد الجامعة .

› التقرير أضبط ..

على اللجنة المسؤولة عن حفظ القرآن ومراجعته أن تصدرَ تقريرًا أسبوعيًا يرصد مستوى الطلاب، وعليها أيضًا أن تجعله تقريرًا علنيا يراه كل الطلاب؛ حتى يدركَ كلٌّ منهم مقامه في هذا النشاط ومدى تحسّن مستواه أو تردّيه، مع ضرورة المتابعة والمعاتبة والتوجيه، ولْيُعلَم أن المحضن الذي لا يقوم بهذا العمل فإنه لن يتمكّن من تقويم طلّابه تقويمًا قويما، فقد جربنا هذا وذاك، وأدركنا الفرق الكبير ..!

› والتعليق وقود ..

وفي التقرير نفسه .. اعتمدنا فكرةً وقّادة ! كنا نضع خانةً بجانب اسم كل طالبٍ في ترتيب الجدول ونكتب فيها تعليقًا يناسب حال الطالب من تشجيع أو عتاب، وكان الطلاب يترقبّون هذه التعليقات بشغف، وقد يتندّر بعضهم بسببها على بعض، وكنا نحرصُ أن نلتزم حدود الأدب والحكمة فيما نكتب، ونراعي نفسيّات الطلاب، فلا نعاتب إلا بقدر، ولا نحمد إلا بقدر .

وقد نطرح تقريرًا يخلو من هذه التعليقات .. فلا نجدُ من الطلاب إلا اللوم والعتاب، والمطالبةَ بعودتها في التقرير القادم .

› وموعد الختمة يستنهض ..

فمع كل تقرير تجد أن جمعًا من الطلاب على وشك الوصول إلى خاتمة المطاف، يفصل بينهم وبين الختمة خمسة أجزاء أو أقل أو أكثر، هنا بإمكانك أن تؤجج حماسهم حتى يصلوا دون تعثّر، ليس عليك سوى أن تدرس معدّل إنجازهم اليومي في الحفظ، ثم قدِّر بعد ذلك موعد ختمتهم واكتبه في التقرير القادم، قل إن فلانًا سيختم في يوم كذا بتاريخ كذا وكذا .. بعد ذلك لن تجدَ إلا همّةً عالية ونفسًا متوثبة .

› سنة أولى إشراف ..

المشرف المستجد في الميدان التربوي يحتاج إلى خطوطٍ عريضة لتكون نبراسًا يستضيء به في سيْره الرساليّ، وسوف أشير إلى شيءٍ من ذلك في الفقرات التالية :

› الوقت كفيلٌ بالتكيّف ..

لا تستعجل الحكم على وضعكَ مع المجموعة، و لا تستعجل راحةَ الاندغام مع الفريق، فبعضُ الأرواحِ لا تألف الجديد بيُسر، بل تحتاج إلى مدّةٍ حتى تدخل في الجوّ العام للعمل، وهذا مُشاهد ومعلومٌ عند الكثير ! تصبّر مدةً يمكنك معها أن تدرك إن كان

العمل هنا يليق بانسجامك أم لا ! فالكثير يحكم على نفسه بعدم الارتياح منذ اللحظات الأولى للعمل وهذا تسرُّع ! والحقيقة أنه لم يألف العمل بَعْدُ ولا فريقَ العمل .

كُلِّفتُ أنا و"أبو ياسر" بالعمل كمشرفيْن في حلقة المرحلةِ المتوسطة، قابلْنا هذا التوجيه بشيء من التبرّم والضيق، لكننا راغمنا أنفسنا على العمل .. وحين انطلق الفصل الدراسي عشنا أسبوعين أو ثلاثة ونحن نتململ من هذا الجوّ الجديد ! كنا نراه جوًا خانقا ! فأين هؤلاء الصغار من شباب المرحلة الثانوية الذين عايشناهم وألفناهم ..؟ شتان بين الفريقين !! مع الوقت .. تغيّرت النظرة .. لا سيما وأن الطاقم الإشرافي كان متجانسًا إلى حدٍ كبير، صرنا نجد مُتعةً في العمل والعطاء، وتداخلنا مع الطلاب بشكلٍ مثالي، فلما انتهى الفصل الدراسي .. جاءني توجيه من إدارة الجامع بالانتقال للإشراف على المرحلة الثانوية لنقص الكادر الإشرافي عندهم، شهد الله أني استثقلتُ أن أترك هذا المجموعة التي انطبعت في قلبي، لكني فعلت للحاجة .. وحينَ مرَّ عُمْرٌ صرتُ أقول : إن أجمل أيامي في العمل التربوي قضيتها يوم أن كنت مشرفًا على المرحلة المتوسطة، والله خير الشاهدين .

› لا تكن فوقيًا !

فأنتَ لم تزل ابن الأمس .. فلا تختلق الحواجز بينك وبين رفاق الدرب من الطلاب .. ممن كنت بالأمس صاحبَهم و ابنَ لحظاتهم الجميلة، اختر لنفسكَ أن تكون قريبًا منهم، عاملهم كإخوة، إياك والزهو أو التعالي .. حتى وإن تجاوزوا في حقك أحيانا، فلابد من الصبر والصفح والتجاوز، وتذكّر أن التعالي في مثل حالتك انحدار، وأن التباهي سقوط، وأن الحكمةَ أن تكون حلقةَ وصلٍ بين صِحاب الأمس "الطلاب" وأصحاب اليوم "المشرفين" .

› إثبات الذات .. شهوة !

ودافع ذلك غالبًا هو الشعور بالنقص، فالمشرف المستجد يريد أن يُثبتَ حضوره بكل ما يستطيع، فيبحث عن بوقٍ يلفتُ به الأنظار.. وهذا البوق قد يتمثّل في تعاملٍ أرعن مع الطلاب، أو لجاجٍ مع المشرفين حول بعض القضايا التي تتعلق بالمحضن، أو اجتهاداتٍ فرديّة مُزعجة يُقدِم عليها دون سؤال أو استشارة .

بينما المفترض أخي المشرف المستجد أن تتروّى حتى تستوعب طبيعةَ العمل، و تدرك طبيعة الرسالة التي تؤديها، وهذا لا يعني حرمانك من حقك في السؤال والنقاش والانتقاد والاقتراح، فكل هذا من حقك الذي لا ينازعك فيه أحد .

› المشاورةُ إعذار !

أدمِن الاستشارة واجعلها زادك .. فأنت ما زلتَ في أول الطريق، شارك الناس عقولَهم، خذ من الكبار تجاربهم، ولْتعلم أن من استشار فقد اختصر .

› روّض حماسَك ..

ومن الحماسِ ما أطفأ جذوتَك ! فـ أوغِل بِرفق .. ووزّع طاقتك المتوقدة بشكلٍ معتدل، لا تكن كالمنبتّ لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى، فإن المُشاهَد في واقع الحياة أن الذي يخضرُّ سريعًا يذبل سريعا، وأن النفسَ إن لم تُؤخذ سوْرتها بالهوْن والأناة فإن مصيرها إلى الملل والخمول .

› فلتبقَ متلقّيا ..

فما صدَقْتَ نفسك إن أوهمتها أنها ولجتْ مرحلة العطاء بلا أخذ، إنك لم تزل – وبقية المشرفين – في مرحلة التلقّي والأخذ والاستفادة، والفرق بين هذه المرحلة وما قبلها أن منسوبَ العطاء ارتفع بشكلٍ جزئي، فلا تهمل تحصيلك العلمي والمعرفي، واعكف بين

يدي الأستاذ مُصغيا ومستفيدا، ولا تهمل جانبَ الاطّلاع والقراءة، وأهم من هذا وذاك أن تواظب على مراجعة ما حفظتَ من كلام ربك، وأن تكمل مسيرة الحفظ حتى تصل.

وبهذا ننتهي من موضوعنا : سنة أولى إشراف .

› القريب مُجيب ..

لديك في خطتك البرامجية جدولٌ مكتظٌ بالبرامج والفعاليات، وكثيرٌ من هذه الفعاليات والبرامج تحتاج – حال تنفيذها – إلى شخصٍ من خارج محضنك (درس علمي / استضافة / زيارة ... إلخ)، ستختصر على نفسك الطريق إن استطعت الاستفادة ممن تحتك من الطلاب في تنفيذ هذه البرامج مستعينًا بأقاربهم ومعارفهم، ستجد من بينهم من يملك أن يسدّ فراغًا في جدولك، جرّبنا هذا فوجدناه نافعا، فأحسِن توظيف طلابك!

› الشماتة لا ترحم !

حين تولّيتُ مهمة الإشراف على المرحلة المتوسطة، لاحظتُ – كما لاحظَ بقيّة المشرفين – أن علاقة أحد المشرفين بأحد الطلاب غير مريحة، ولم نلبث طويلا حتى صارحني أحد المشرفين بأن هذا المشرف بعلاقته هذه يسيء إلى المشرفين عموما، وأن عِرضَه سيكون كلأً مستباحًا للطلاب إن هم لاحظوا ما لاحظنا، ثم طلب مني – أو كلفته .. لا أتذكر – أن يتابع هذا الموضوع مع المشرف المسيء، وأن أترك له الفرصةَ ليعالج هذا الخطأ .

في الحقيقة .. لم أفهم دافع هذه العلاقة المنجرفة، ولم أجد مبررًا أستطيع معه أن أفهم سرّ هذا التعلّق، فلا الطالب موهوب .. ولا الطالب حسن الصورة، و لا الطالب من أقارب هذا المشرف ولا من معارفه ولا من جيرانه، كانت تعلُّقًا محيّرًا بقدر وضوحه !

حاولَ صاحبُنا أن يعالج هذا الخطأ، فجلس مع المشرف عدةَ جلسات دون أن نجدَ نتيجةً مُرضية .. وفي كلّ مرةٍ يخبرني الصاحبُ بما جرى في لقائهما، وكيف دار الحديث بينهما، حتى طال الأمد .. وطال معه أمد التعلق .. فبدا لي أن صاحبي – الناصح - قد أخذه التبلّد، وبدأ يأخذ الأمر بشيء من السخرية، فكان إذا مرّ ذِكر ذلك المشرف يسخر منه .. أو يضحك .. أو يلقي كلمةً يهمزه بها ! وكان يرمي على سمعي سؤالًا يكرره باستمرار : (ياخي ودي أفهم .. وش هو لاقي فيه ؟؟) كان هذا هو اللغز الذي لم نستطع حلّه وتفكيكه ! ولمّا طال الأمر .. واجتمعتْ على المشرفِ أخطاءٌ أخرى .. قررنا أن نستبعده .

ودار دولاب الزمان .. ومضتْ سنة ثم سنتان، وقررتُ أن أبتعد عن العمل الميداني لفترة، ثم حصل ظرفٌ للمجموعة كان لزامًا عليّ – في ظلّه – أن أعود للعمل وأن أقود المجموعة، فأراد قائد المجموعة أن يُسلّمَ إليّ العهدة من أوراق وملفات وما يتبع ذلك، ثم طلبَ أن يجلس معي جلسةً مطوّلة؛ ليبيّن لي حال المجموعة وما هي عليه من صوابٍ وخطأ؛ حتى يتسنى لي العمل بتصوّرٍ كاف، فاجتمعتُ به اجتماعًا طويلا، وراح يحكي لي حال أفراد المجموعةِ من مشرفين وطلاب، حتى وصلنا إلى اسم صاحبي المشرف المُكلّف بالمُناصحةِ في الحادثة أعلاه – وكان من طاقم الإشراف – فقال لي القائد القديم : (تكمن مشكلة هذا المشرف أنه على علاقة غير مريحة بالطالب فلان !!) عجيب !!! متأكد ..؟ قال لي مؤكدًا : (نعم، ولمَ ..؟) فأخبرته أن هذا المشرف كان يتأذى من علاقة ذاك المشرف المُبعَد بهذا الطالب، فكيف لعبَ الزمان لعبته وتعلق هذا المشرف بالطالب نفسه ..؟؟!! لم يحر جوابا !

مباشرةً تذكرت السخرية ..! سقَتْهُ من سُمّها الناقع فأردَتْه ..

أنا أعلمُ يقينًا أن هذا المشرف من أبعدِ الناس عن هذه المزالق، و أعلم يقينًا أنه كان يتأذى فعلًا من تلك العلاقة ويراها غير سويّة، وأعلم يقينًا أنه كان جادًا في علاج تلك

الحالة وأن دافعه في ذلك لم يكن سوى بغضه لمثل هذه الظاهرة ! قد يُقال : ربما كان دافعه في ذلك هو الغيرة، وإنما أراد أن يزيح ذاك المشرف من تلك العلاقة ليقوم مقامه . لا والله أبدًا .. ما كان كذلك ! إنما هي الشماتة والسخرية فعلتْ أفاعيلها، واللهُ العاصم وحده، ومنه الثبات، وعليه التكلان .

› نصيحةٌ مُنتَقَضة ..

كُنّا في مجلسٍ يجمعنا في إحدى رحلات المبيت، وكنّا على موعدٍ مع أطروحةٍ ثقافية سيلقيها أحد الفضلاء، وقبل أن يبدأ .. استأذن أحدُ الطلاب أن يلقي كلمةً مختصرةً من عفو خاطره، فأذِن له الضيف، استفتح بالحمد والثناء .. ثم شرَعَ يتكلم عن "الجدّية" وينتقد تصرفات بعض الشباب والتي تشي بشيء من الإهمال وقلّة مبالاتهم بالأطروحات الجادة والمفيدة، كان توجيههُ جميلاً وتنظيره رائقًا، ثم ختم كلامه بالشكر على حسن الاستماع والإنصات، واعتذر إلى الضيف أن أخذَ جزءا من وقت درسه .. ثم جاء وقت الضيف فاستفتح وشرَع في موضوعه، وما هي إلا هنيهة .. حتى انحنى عنق صاحبنا المُنَظِّر، ودخل في نوباتِ نومٍ متقطّعة !! اتجهت إليه الألحاظ، وراحَ الطلاب ينظرون إليه ويتغامزون، ولسان الحال: (لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ) ؟ تقزّمتْ نصيحته أمام تصرّفه، وغدَت كالهباء المتطاير في الفضاء، لا وزن له ولا قيمة .

› توظيف التقنية ..

من الأفكار الفائقة التي طبقناها .. توظيف التقنية في مناشط المحضن، والاستفادة من مستجدات التقنية في العمل التربوي، وكنا نجدُّ في توظيف التقنية المناسبة للعمل المناسب، فاستفدنا من بعضها في تفعيل البرامج، واستفدنا من بعضها الآخر في التواصل مع الطالب، واستفدنا من بعضها الثالث في التواصل مع المنزل ..

فحين كانت المنتديات هي مُرتَكَز الشبكة العنكبوتية .. أسّسنا منتدىً مغلقًا خاصًا بالمحضن، نضع فيه إعلانات الحلقة وبرامجها وتقريرًا دوريًا للفعاليات والمناشط، وكانت الفرصةُ متاحةً للمشاركة والنقاش والأخذ والرد، حتى وإن كانت المشاركة لا تتعلق بالحلقة ومناشطها .

وحين بدا نجم شبكات التواصل يتلألأ .. هجرنا المنتدى وانطلقنا مع "الفيس بوك" في صفحةٍ مُغلقة تُعنى بفعاليات الحلقة، واستنسخنا ما كان من عملٍ في المنتدى وجعلناه في الوسيلة الجديدة .

ومع ثورة "الواتس اب" وانتشار الأجهزة الذكية استغنينا عن كل ما مضى من الوسائل واخترنا التواصل عبره، واستُحدِثتْ فكرةٌ جديدة كان لها نعمَ الأثر في تمتين العلاقة بين الحلقة والمنزل؛ وذلك من خلال استخراج شريحةٍ خاصة للحلقة، أُضيفَ فيها أرقام آباء الطلاب في مجموعة مستقلة، وأرقام أمهاتهم في مجموعةٍ أخرى، وصارَ الهاتف أشبه بقناةٍ إخبارية فوريّة تنقل أخبار الحلقة ومناشطها بشكل مستمر، وبالصوت والصورة، وهذا الجانب – أعني اطلاع المنزل على مناشط الحلقة – مهمٌ جدًا لترسيخ الثقةِ بينهما .

ومعلومٌ أن لكل زمنٍ ما يناسبه، فمتى استجدت تقنيةٌ يمكن الاستفادة منها وتوظيفها في مناشط المحضن فلْيُؤخذ بها دون تردد .

› استئصال ..!

أريد أن أخبركم – أحبتي – أن بعضَ العيّنات من الطلاب السيئين في المحضن لا ينبغي أن تُعطى في سبيل تقويمها مدةً أطولَ مما تستحق؛ لأن فسادها يستشري في المحضن بقدرِ بقائها، و قد رأيتُ بنفسي عددًا من الحالات استمرّ ضجيجها سنتيْن وثلاثا بعد إبعادها، وأصابنا معها صُداعٌ لم يهدأ إلا بعد أمَد، وبين أيديكم أضع صورًا قد عايشتها وذُقتُ مرارتها .. أبرزها :

الأولى : أن يكون هذا الطالبُ مُفسِدًا بطبعه، فينقل العدوى إلى جمعٍ من الطلاب، فبمجرّد إبعاده .. تنشغلُ تلقائيًا بعلاج آثاره، وقد تضطر إلى إبعادِ شخصٍ آخر أو أكثر بسببه .

الثانية : أن يبقى هذا الطالب – بعد إبعاده – على تواصلٍ مع الطلاب أو مع بعضهم، فإن سلموا من إفساده .. فلن يسلموا من كلامٍ يبثّهُ في أسماعهم يقفون منه موقف المتحيّر، وقد يُصَدِّقون أو يُصدِّق بعضهم، فتهتزُّ صورة المحضن أو صورة مشرفيه في أذهانهم، ولا بد حينها من الجلوس مع الطلاب ومصارحتهم وإزالةِ هذا الغبش المُرِبك .

الثالثة : إن سلم محضنك من الأولى والثانية .. فالغالبُ أنه لن يسلم من برامج جانبية يُقيمُها الطالب المُبعَد مع عددٍ من أفراد حلقتك قد تؤثر عليهم سلبًا مع تطاول الزمن، وهذا التأثير قد يمتدُّ إلى المحضن نفسه، فتظهر على البعض أمارات الفتور والتسيّب؛ لانشغالهم ببرنامجٍ آخر، وقد ينجرف طلابٌ آخرون إلى هذا البرنامج الجانبي، فيصبح الوضع فوضى لا تُطاق !

فاختر أن تستأصل بشكلٍ فوري إن بدا لك أن الحالةَ تستحق ذلك .

> واستئصالٌ رحيم ..

ففي محضنك من الطلاب مَن تتمنى بقاءه معكَ لولا خلل فيه – غير متعدٍّ - يمنعك من الإبقاء عليه، أو ربما لم يأتِ على شرط مجموعتك، فتختار الاستغناء عنه طلَبًا لصلاحِ المجموعة، فاحذرْ أن تكسِرَ قلبه، أو تنفِّرَهُ من هذه المحاضن، ولْتعمل على إبعاده بحكمةٍ وهدوء، والكمال أن تبحث له عن مجموعةٍ تناسبه ليكمل مسيرته معها.

تلفَّتْ .. تجد حولك من المشرفين والمربّين مَن يملكُ قدرةً عاليةً على التنظير وتوليد الأفكار، لكنه أضعف من أن يبعث حروفه وكلماته في عالم الواقع، وهذا ليس سيئًا على كل حال، فكما تجد هذا .. فإنك تجد من المشرفين مَن لا يفهم من أمور الحياةِ إلا أن يكون مُنفِّذًا .. كالآلةِ تنتظر التوجيه، فهذا يكمّل ذاك، وهذه قسمة الله في خلقه !

خُذْ مثلًا : عملتُ مع أحد المشرفين، وكان حينها قائد المجموعة، فرأيتُ من تنظيره وأفكاره ما يخلب اللبّ ويُبهِر العقل، حتى يكاد من يسمعه ولا يعرفه أن ينتظر من تحته جيلًا يشبه جيل الصحابة، بيْد أن تسيُّب المجموعةِ تحت قيادته آنذاك لم يكن أمرًا خفيًّا، بل رأيتُ في ظلِّ قيادته من الخروم التربويّة ما لا يستسيغه مشرفٌ مبتدئ في العمل التربوي !!

و على النقيض منه .. عملتُ مع مشرفٍ آخر وتحت قيادته، فوجدتُه مُشرفًا لا يُحسِن تصفيف الكلام، ولا توليد الأفكار، لا يحمل من مؤهلات المشرف التربوي إلا الأسس والمبادئ والخطوط العريضة .. لكنه كان نهِمًا في التطبيق والعمل ! ما إن يطرح أحدنا عليه فكرةً جديدةً مُبتكَرة، أو يشير عليه باقتراح يرفع أسهم المجموعة في مجال من المجالات .. إلا وينطلق كالسهم الخارق في تنفيذه وإتقانه والتفاني فيه، بل كان في كثيرٍ من اجتماعات العمل يُلِحُّ علينا أن نبتكرَ فكرةً جديدا أو برنامجا جديدا، وكان يؤكد كثيرا أنه يكره التقليد والجمود ويبحث عن الأفكار المُحلّقةِ والبرامج الأخّاذة !! كل هذا وهو لا يستطيع أن يولّد فكرة أو يخترع جديدا؛ لأن الله قسَم له العمل ولم يقسم له الفِكر ..

فماذا لو اجتمع الاثنان وتمّمَ كلٌّ منهما صاحبه ..؟!

› يداكَ أوْكتا ..

من أعظم ما يستفيده المشرف في هذه المحاضن تحمُّل المسؤولية حال الخطأ، فتحمُّل مسؤولية الأخطاء يولّد في داخل الفرد رغبةً شديدةً تدفعه إلى حلّها وعدم تكرارها، وهذا يربّي النفس مستقبلًا على الحذر وطول التأني واتخاذ القرارات على مكث .

هَبْ أن مُشرفًا اكترى استراحةً وكانت في غايةِ السوء، وتناهى إلى مسامعه نقد الطلاب وتبرّمهم، أليس هذا الأمر يجعله يفكّر ألف مرة قبل أن يستأجر استراحةً في المرة القادمة ..؟

يجب على المشرف الأكبر أن يربّي مَن تحته من المشرفين على هذا، لا أن يرقّع أخطاء العاملين معه في كلِّ مرّة أو أن يتحملها عنهم، فهذه جنايةٌ عليهم وعلى المحضن قبل أن تكون جنايةً عليه هو ! ومَن أراد أن يتعلّم .. فليتألم !!

› الموهوب مرهوب ..

الطالب الموهوب يحذره كثيرٌ من المشرفين، ويخافون كثيرًا أن يبدوَ متفوقًا عليهم، بل يتجاوز البعض فيعمد إلى تقزيم الطالب الموهوب ومحاربته .. وقد يغلو ويتهور فيستأصله تحت أي ذريعة، والحقّ .. أن يعترفَ بموهبتِه وأن يرعاها ويستفيد منها ويوظّفها لصالح المحضن والأمة، انظر حال موسى مع أخيه هارون – عليهما السلام – (وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ) اعترافٌ من ذي مرتبةٍ أعلى، وتوظيفٌ لصالح الدعوة والرسالة .. وهذا منهجُ الأنبياء والرسل .

› وعلى ذكِر الأنبياء والمُرسَلين ..

فإنّكَ لو أنعمتَ النظر في كلام الله، وتأملتَ مواقفَ الأنبياء في القرآن، لوجدتَ أنها تصلح – بمجموعها - أن تكون من أساسيات المربي الناجح، ففي قصةِ موسى – عليه

السلام – تجد إنصاف الأعلى للأدنى بالاعتراف بتفوّقه مع توجيه هذا التفوّق إلى ما ينفع : (وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي)، وفي قصةِ نوحٍ – عليه السلام – تجدُ طول الصبر على طريق الدعوة مع تنوّع أساليها .. فالتنويع أدعى لقبول المتلقي وأبعد عن إملاله: (قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا، فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا، وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا، ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا، ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا)، فالتنويع في البرامج وفي طريقةِ طرحها والتجديد والابتكار في ذلك أساسٌ عظيم يعين – بأمر الله – على قبول المتلقي للرسائل التربوية، وفي قصّةِ هودٍ - عليه السلام – تجد الصبرَ على المتربين وعلى إذايتهم وسفاهةِ بعضهم : (وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ، قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ، قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ) .. ليس بي سفاهةٌ ولكني رسولٌ من ربِّ العالمين ! هكذا بكلِّ سكينةٍ وهدوء !! وفي قصةِ شعيبٍ – عليه السلام – تجد التأكيد على استشعار حال القدوة، وأنه لا يليق بالمربّي أن يأمر بأمرٍ أو ينهى عنه ثم يخالف بفعلِه قولَه : (وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ)، وفي قصة إبراهيم - عليه السلام – مع ربِّه تجد استجابةَ الأعلى لطلبات الأدنى وإجابتَه على ما يطرحه من أسئلة مهما كانت جريئةً وغيرَ متوقّعة : (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ، قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن، قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي، قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا، وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)، فإذا لم يجد المربّي جوابًا لسؤال المتربي، فليُحِلْه على مليء .

وفيه قصّةِ موسى – عليه السلام – حال عودته من ميقات ربه إلى قومه وقد أضلهم السامريّ .. نجدُ أن صاحبَ الرسالةِ قد يغضبُ غضبًا لا يضارعه غضب، وقد يترتب على الغضب تصرفٌ لا ينفكّ عن بشريّة المصلحين : (وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ

أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ؟ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ ...) وأيُّ ألواحٍ ألقى الكليم – عليه السلام - ..؟ قال مجاهد : "كانت الألواح من زمردة خضراء" . وقال ابن جبير : "من ياقوتة حمراء" . وهي التوراة التي أُنزلتْ على موسى، فهي كلام الله وكتابه، ثم التفتَ الكليمُ إلى نبيٍّ مثله : (وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ)، قال ابن القيم – رحمه الله - : (سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يقول: انظر إلى موسى - صلوات الله وسلامه عليه - رمى الألواح التي فيها كلام الله الذي كتبه بيده فكسرها، وجرَّ بلحية نبي مثله وهو هارون، ولطم عين ملك الموت ففقأها، وعاتب ربه ليلة الإسراء في محمد ورفعه عليه، وربه تعالى يحتمل له ذلك ويحبه ويكرمه ويدنيه؛ لأنه قام لله تلك المقامات العظيمة في مقابلة أعدى عدو له، وصدع بأمره، وعالج أمتيْ القبط وبني إسرائيل أشد المعالجة، فكانت هذه الأمور كالشعرة في البحر، وانظر إلى يونس بن متى حيث لم يكن له هذه المقامات التي لموسى غاضب ربه مرة، فأخذه وسجنه في بطن الحوت ولم يحتمل له ما احتمل لموسى، وفرقٌ بين من إذا أتى بذنبٍ واحد ولم يكن له من الإحسان والمحاسن ما يشفع له، وبين من إذا أتى بذنب جاءت محاسنه بكل شفيع كما قيل:

وإذا الحبيب أتى بذنب واحد   جاءت محاسنه بألف شفيع) [مدارج السالكين]

و لا يخلو مجتمع التربيةِ من التجاوز والخطأ، سيّان في ذلك المربي والمتربي، وقد تغلو بعض ردود الأفعال تجاه الخطأ من قِبَل الفريقين أو أحدهما حتى يصل الأمر إلى الغضب ورفع الصوتِ والتلفظِ بما لا يليق، فلابد من مراعاة كلِّ طرفٍ لحال صاحبه، وأن يستصحبَ كلٌّ منهما تاريخَ صاحبه وما في تضاعيف أيامه من الحسنات والأعمال الجليلة، خصوصًا تجاهه أو تجاه المحضن، فإن هذا أدعى للتجاوز وتسكين الغضب، بل إن الغضب قد ينقلبُ تمامًا إلى حالةٍ رفيعةٍ من العفو والتجاوز والإحسان، وهذا ظاهرٌ في الموقف ذاته، وذلك حين عاتبَ موسى أخاه هارون وهو يجرّ لحيته ورأسه : (قَالَ يَا هَارُونُ

مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا، أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي)، فأفصحَ هارون – عليه السلام – بجوابٍ يسكّن به غضبَ موسى : (قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ، قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) فانقلبَ الغضبُ المشبوب إلى دعواتٍ رؤومةٍ رحيمة، وهذا التعليل من لدن هارون – عليه السلام - يؤخَذ منه أن تبرير التصرُّف مطلوبٌ إن كان سيؤدي إلى امتصاص حالةِ الأسفِ والغضب .

› قدرٌ مُشترَك .. ثم تغذيةٌ مركّزة ..

كلنا يعلم مدى التفاوت الذي طبعَ الله عليه البشر، و أنَّ البشريةَ كلّها لن تكون يومًا على مستوى واحد من الهمّةِ والميول والذكاء والاستعداد للأخذِ والتلقي؛ إذًا لانعدمتْ حقيقة التسخير، ولتوقّف دولاب الحياة عن المسير .. إلا أنه (قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا) وبهذا التوزيع المُحكَم يحصل التوازن في هذا الكون الفسيح، فإذا أراد البشر منازعة هذه الحقيقة اختلّ نظامهم، وصَادموا صبغةَ الله (وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ) ؟؟!

والحياةُ في المجتمع التربوي لا تتخلّفُ عن هذه الحقيقة، فإنّك إن تأملتَ حالَ الطُلاب وجدتَهم متفاوتينَ في الذكاء والميْل والموهبة والهمة .. وما إلى ذلك ! فإن أرادَ المربّي أطرَهم على طريقةٍ واحدة أو تأطيرهم في نظامٍ واحد ما كان ذلك مُجديًا أبدا، إنّك إن شئتَ أن ترفعَ منسوبَ البرامج فإن الضّعاف يضطرون إلى الانسحاب، وإن شئتَ أن تُخفِّفَ هيكلك البرامجي .. تضجّرَ أصحاب الهمم العالية، وأبَوا إلا الترقّي أو البحث عمن يوظّف هممهم ويضعها في موضعها .

هنا ينبغي أن نرسمَ قدْرًا مشتركًا للجميع .. يرتقي إليه الضعيف، ويحوم حوله المقتصد، ويمرُّ به السابق، فمن فاضَ من همته شيءٌ أُعينَ عليها بما يليق به وبها، وبالمثال يتضح المقصود :

١. في مسألة حفظ القرآن : لم يكن الطلاب عندنا على درجةٍ واحدة في القدرة على الحفظ كمًّا وكيفا، فقمنا بتقسيم الطلاب حسب قدراتهم إلى مجموعات، ووضعنا لكل مجموعةٍ مقدارًا يناسبها في الحفظ والمراجعة لا يحقّ للطالب في المجموعة أن ينزل عنه، ثم رأينا أن بعضَ الطلاب يملكُون قُدرةً تتفوّقُ على كل المجموعات، فهم استثناء في مسألة الحفظ والمراجعة، حتى إن بعضَهم كان يستطيع أن يراجعَ ما يعدل نصفَ القرآن أو أكثر في أسبوعٍ واحد، هؤلاء كان لابد من إفساح المجال لهم ومداراة طاقاتهم المتفجّرة، ولم يكن من الحكمة أو النُصحِ ضغطُهُم في جدول الفئات، فكان يتاح لهم التسميع وقتَ الحلقةِ وخارجه بطريقةٍ منضبطة لا تسمح بانفلات النظام .
٢. في مسألة الدرس العلمي : كان الدرس العلمي – في الجملة – ثقيلًا على الطلاب، رغم أنه لم يكن سوى ساعةٍ واحدةٍ في الأسبوع، إلا أن الهدفَ الأسمى منه لم يكن تحصيلًا علميًا أو إثراءً معرفيا .. بل كان الهدف تربيةَ الشباب على ساعات الجدّ والتلقي عن الأشياخ، و أن يكون الدرس مفتاحًا لمن شاء أن يسلك طريق العلم الشرعي، وإلا فساعةٌ واحدة في الأسبوع لا تُخرِّج طالب علمٍ ولا نصفه ولا سدسه، ورغم ذلك .. كنا نجد من الطلاب من يتحرّق شوقًا إلى مثل هذه اللقاءات والدروس، ويجد في نفسه رغبةً جامحةً تشدُّه لسلوك هذا الطريق، فكان الرأي أن نوجّه هؤلاء الفرسان إلى دروسٍ تنفعهم وتشفي نهمتهم، إما بالتنسيق مع طالبِ علمٍ ليقيم لهم ما يليق بهم، أو بالبحث عن درسٍ عامٍ يناسب سنّهم وحاجتهم، شريطةَ أن لا يتنافى الدرس مع مناشط الحلقة .

وهكذا يُفترَض أن نكون .. أن نتفق على قدْرٍ متوسط يشترك فيه الجميع، فمن شاء أن يجتازه بعد ذلك فلا يُكبَت، فتكبيل الطاقات ظلمٌ وخطيئة .

› الصوت السوط ..

في غمرة العمل .. ينسى كثيرٌ من المربّين بعضَ الغايات العظيمة من تنشئة الشباب، ويُقدِّمون غاياتٍ مفضولة يمكن تأجيلها أو التنازل عنها، وهذا دافعه جهلٌ أو وراثةُ أسلوب لم يُفهَم على وجهه أو لم تُدرَك مناسبته أو لم يكن سليمًا من الأصل !

اتصل أحد الطلاب في نهايةِ الأسبوع بالمشرف معتذرًا عن شهود الرحلة، استفسر المشرف عن السبب ! أخبرَه الطالب بأنه مرتبطٌ بمناسبةِ عائلية لها أهميتها، ألحّ المشرف على الطالب .. والطالب يأبى ويتمنّع !

لم يكن من طبعِ الطالب الإهمال والتراخي – كما شهد له من عرفه – بل كان من طبعه الحرص والمواظبة .. غيرَ أنه ابتلي بمشرفٍ جامد لا يملك مرونةً تؤهله لفهم الأولويات وتفعيلها، وبعد إلحاح منه وضغط على الطالب .. انفجر الطالب في وجهه وتلا : (فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ، أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ) .. لك أن تتخيل هذا السوط وهو يهوي على قلب المشرف / المربّي .. ولك أن تتخيل كيف رضيَ المشرفُ لنفسه أن يناورَ في زاويةٍ ضيّقة .. مناورةً كان هو الخاسر فيها، لقد كان بوسعه ما هو أوسع وأرحب !

› مواجع التراجع !

تصيبُ الإنسانَ – في شتى شؤونه – حالةٌ من الفتور والسكون، وهو إلى هنا لم يخرج عن مسار فطرته ومقتضى بشريّته، فإنّ "لِكُلِّ عملٍ شِرَّةٌ، ولِكُلِّ شرَّةٍ فَترةٌ"، هذه قاعدةٌ لا تنخرم، لا في شؤون الدين ولا في أمور الدنيا، ويختلف الناس في زمن مكوثهم في دائرة الفترة، ما بين مُقيمٍ إلى أمدٍ حتى إن قوائمه لتسيخ ومُرتحلٍ ينشُدُ راحلةً و رُحّلا .. وهما

بين مُقتصِدٍ وسابقٍ بالخيرات بإذن الله ! هذان صنفان مشهودان نراهما كثيرًا في واقعنا التربويّ ! ألا ترى مُشرفًا ينسحبُ من العمل شهرًا أو شهرين .. تقلّ أو تزيد بدعوى الراحة والاستجمام وترتيب الأوراق ؟ وفي بعض الحالات .. ألا ترى مشرفًا يطلبُ مهمةً ميسورةً تنسجمُ مع حالته النفسية وتتسق مع وضعه الذي لا يَحتمِل ..؟ أيضًا .. ألا ترى طالبًا يتغيب عن المنشط التربوي أسبوعًا أو أسبوعين .. بل قد ينقطع فصلًا كاملا دون مبرر مفهوم ..؟ هذه حالاتٌ من الفتور لا ننفك نراها حينًا بعد حين، وهي من صبغةِ الله، مَن صادمَها طوَته، ومن رامَ العبثَ معها قذفته في الخضمّ البعيد ..

هذان اثنان ..

وأما الثالث فالمتراجع ! و آهٍ من التراجع .. ومن مواجع التراجع !! ليته اختارَ وجهةً جديدة يُزهِر فيها ثم يُثمر، ليته حين شعر بالذبول هناك .. تحسسَ واحةً فيْنانةً يزرعُ فيها قلبه ليينع من جديد ! ليته حينَ تضيّفتْ شمسه للغروب .. اختارَ عالمًا جديدًا يبعثه من مراقد الخمول والخوَر ! أبى الصاحبُ إلا القفول، فألقى ماضيه الزاهر خلف ظهره، وأشعل في روحه فتيْلًا لا ينفك يحرقها، صرعَته شهوةٌ فانصرعَ لها، أو وكزته شبهةٌ فقضتْ عليه .. وليته تفطّن فقال : "هذا من عمل الشيطان" .. واللهُ العاصم !

وماذا بعد ..؟! ليسَ بعد ذلك إلا أن نتلقّفَ قلبه، و أن نضمّد روحه، وأن نتزلّف ودّه القديم، وليس وراء ذلك من الأخوّةِ مثقال حبّةٍ من خردل !

وهذا الموضوع – أعني الانتكاسة – عولجَ كثيرًا، ما بين قديم وجديد، ومقروء ومسموع، وقلّ أن تجدَ من يطرح في علاجه طرحًا مُبتكَرًا أو مختلفًا عن السياق المكرور، ولهذا جاءت هذه الخاطرة مرشدةً إلى طرح معاصر يتناول هذا الموضوع تناولًا جديدا، يجمع بين التنظير والتأصيل والتطبيق، وأحسبه يصلح لأن يكون منهجًا يُحتذى في التعامل مع المتراجعين .. وعنوانه : (المنهج في التعامل مع المنتكسين) للدكتور / صالح العصيمي،

وهو كتابٌ فريدٌ في بابه رغم إيجازه و اختصاره، و يا حبذا لو أن المربّين والدعاة تدارسوه بينهم في مناشطهم ومنتدياتهم؛ ذلك أنّ أكبر أسباب إصرار المنتكس على ضلالته بل والتبجح بها والإيغال فيها .. هو ما يراه من ردود الأفعال من قِبَل رفاق الأمس تجاهه، من تحقيرٍ وتجريحٍ وتعالٍ وشماتةٍ وسوء معاملة ! وهذا الكتابُ يعالج مثل هذا العِوَج .

› تحجيم التباهي !

كلنا نعلم أن المحضن يجمع طلابًا من بيئات مختلفةٍ ومتفاوتة، تتفاوت هذه البيئات في طبيعتها وفي مكانتها الاجتماعية وفي مركزها المادي، فتجدُ من طلاب المحضن من هو ذو نسبٍ رفيع له عمقه وعراقته، وتجدُ منهم من يتعزّى بمنصبِ أبيه العلمي أو الاجتماعي، وتجدُ منهم من لو فاخَر لفاخَر بما اكتنزه أبوه من المال والثروة، وأيضًا .. تجد منهم من ليس له نصيبٌ من هذا و لا ذاك ! بل هو من أوساط الناسِ .. لا يُعدّ إن حضر .. و لا يُفتقَد إن غاب ..

فإذا علمتَ ذلك .. فاعلم أنّ من الطلاب مَن لو وجدَ فُرصةً – وإن دقّت – ليباهيَ أقرانه بما يُباهَى به – ولو لم يكن من كسبه – لفعل ! فإن فعل .. فقد حرّكَ حميّةً خامدةً في نفوس الطلاب، وحينها لن يكون إيصاد الباب بالأمر الهيّن، فاختر لنفسكَ الوقاية خيرٌ لك من باهظ العلاج ..

أراد أحد الطلاب أن يستعرضَ ثراء أبيه، فدعا أفراد الحلقةِ إلى بيته .. وجهّز سيارةَ والده أمام باب المنزل بطريقةٍ استعراضيةٍ لا تخفى، دخل الطلاب وهم يتهامسون فيما بينهم عن هذه السيارة الفارهة .. أقحموا مشرفهم في هذا النقاش وهم منبهرين مشدوهين، والطالب المُضيف يتلذذ بما يرى وما يسمع، لم يجدوا من مشرفهم تفاعلًا ولا انبهارا .. إنما أجاب على الفور : "اعذروني .. فأنا لا أفهم في السيارات .. ولا أفرّق بين المرسيدس والكورلا" قالها بطريقةٍ توحي إليهم بتفاهةِ الأمر وأنه لا يستحق الانبهار والشدَه .. ثم

حرَف المجلس إلى حديثٍ آخر يُنسيهم ضعفَهم ويعيد لهم توازنهم وثقتهم في أنفسهم وأهليهم، والطالبُ المُضيف حَسِرٌ مما جرى من هذا المشرف .. الذي كان قُبّة الميزان، وبه الأمرُ اعتدل !

أيضًا : استضافت الحلقة طالبَ علمٍ ليحدّثهم عن موضوعٍ إيمانيّ يسدُّ فجوةً في أرواحهم، وقبل أن يبدأ حديثه أراد أن يتعرّف إلى الطلاب .. أسمائهم .. مراحلهم الدراسية .. ما يحفظون من القرآن .. بدا التعارف سلسًا أنيقًا إلى أن عرّف أحد الطلاب بنفسه :"فلان بن فلان بن فلان آل فلان" ! كان تعريفًا مشوبًا بالتعالي .. أراد بسلسلة النسب هذه أن يوحيَ إلى الضيفِ أنه حفيد العالِم فلان صاحب المصنّفات الذائعة والمؤلفات المشهورة !! كان الضيف ذكيًا حصيفًا لمّاحا؛ إذ أدرك أن التعريف خرج على سبيل المفاخرةِ وبروحٍ يفيض منها الزهو والتحدي، فكان ردّه باردًا باهتًا يليق بهذا الانتفاش، أجابَه كما أجاب غيره في المجلس : "ونعم .. حياك الله" ثم انتقل لِمَن بعده بكل هدوء !

وقد رأيتُ أن كثيرًا من المشرفين والضيوف يُسهمون في تعزيز هذه الصفة السيئة في بعض الطلاب، فتراهم يُظهِرون انبهارهم السمين وإعجابهم الضخم بما يُفاخِرِ الطالبُ به أقرانَه، فيزداد الطالبُ غرورًا وكِبرًا وتيهًا، وتراه يكرر بين الحينِ والآخر على أسماع المشرفين والطلاب مفاخِرَه، ويستعرضُ كلَّ شيءٍ يُشبع زهوَه وغروره، وما اجترأ على هذا إلا لأنه سمع لصوته صدًى أعجبه، ثم انظر بعد ذلك كيف تتحرّك الحميّة في نفوس الطلاب لذواتهم وأمجادهم، وليس بعد ذلك إلا التنافس القتّال .

ولله أقول .. ليس كلُّ الطلاب – ممن يملكون رصيدًا للفخر – على هذه الطريقة، فقد رأيتُ منهم من يختار حياةَ الغريب، ويتقصّد الزوايا والأطراف، فإذا أُثنيَ عليه بما يُفاخَر به .. رأيتَ التواضع ونكران الذات .

> ألم أقل لك ..؟

قال لي أبو راكان يومًا : ابتعد عن "ألم أقل لك / لكم ؟" فإنها لا تلأم الجُرح، بل على العكس .. قد تهيّجه فتؤخّر شفاءه .

كثيرٌ من القضايا التربوية هي في حقيقتها محل اجتهادٍ ونظر، المشرفون فيها ما بين مجتهد مصيب ومجتهد مخطئ، وكثيرًا ما يلجأ المشرفون إلى التصويتِ على بعض القضايا؛ ليكون القرار فيها ناجمًا عن الأغلبية، وهذا أقرب لإصابةِ الحق، وأجمع للودّ، وأبرأ للذمة، وقد يتبيّن أحيانًا للمجموعةِ الإشرافية – بعد حين - أن القرار الذي اتُخذ بالأغلبية كان قرارًا خاطئا، و لا عصمةَ للعقول مهما انتهت إليه من كمال، هنا .. يكون الحل المثالي أن ننشغلَ بتصحيح الخطأ، وتوجيه القافلة إلى مسارها الصحيح، مع علاج ما تبدّى لنا من الآلام والأوجاع الناتجة عن القرار الخاطئ الذي اتخذناه، هذا خيرٌ من الانهماك في التلاوم والتثريب والعتاب، خصوصًا ممن كان يخالف الأغلبية فيما اتخذوه من قرارات خاطئة، وليكن هذا الخطأ مختزنًا في رصيد الأفراد وتجاربهم، فإن الخطأ وارد .. وتكراره معيب، ولْيعلم اللائم أن الملوم قادرٌ على استيعاب الدرس دون أن يقال له : "ألم أقل لك ؟" .

> نظرة في المواضيع الثقافية ..

ذكرتُ فيما سبق .. أنني مررتُ بتجربةٍ غير مشجّعةٍ في تنسيق الزيارات للجهات والمنشآت المختلفة، وكما قلتُ في الزيارات .. أقول في المواضيع الثقافية المطروحة !

فمعلومٌ أن المنشط التربوي يستجمُّ نهاية كل أسبوع برحلةٍ ترويحيةٍ يتخللها شيءٌ من الجِدّ المفيد، والغالب أن هذا الجِدّ يتمثل في موضوع ثقافي يُطرَح بين صلاتيْ المغرب والعشاء، وهذا أمرٌ جليلٌ جميل .. إلا أن التجربةَ التي مررتُ بها في هذا الشأن لم تكن

بالمستوى المأمول، فالكثيرُ من المواضيع الثقافية المطروحة يشوبها عددٌ من السلبيات أُجمِلها في الآتي :

التكرار الممل للموضوع نفسه في أكثر من لقاء، التطويل والإثقال على المتلقي، الطرح التقليدي .. مُلقي ومتلقي .. دون استخدام وسائل تكسر هذا النمط الرتيب، التركيز على جانب موضوعي معين في كل اللقاءات الثقافية "الإيمانيات فقط مثلا" .

ومما أذكره .. أننا مرَّةً استضفنا طالبَ علمٍ ليطرح موضوعًا يفيد المجموعة، فاختار أن يكون الموضوع " مئة فائدة من قصة يوسف – عليه السلام –" ولاشك أنه عنوان رائع جدًا للمجموعات الشبابية، فانطلق بعد صلاة المغرب يسرد علينا الفائدة تلوَ الفائدة بأسلوبٍ رتيب ممل، ثم أذّن العشاء وهو لم ينتصف في فوائده بعد !! فطلبَ منا أن يكمل بعد الصلاة .. فجاملناه ووافقنا، فأكمل بعد الصلاة بالأسلوب ذاته .. بطيئا مملًا باردًا، حتى خفقت رؤوس بعض الطلاب، فاستأذنتُ من مسؤول المجموعة لأُحضِرَ العَشاء – وكنت مكلّفًا بذلك – وأنا أعلم أنني سأعود ولم ينته، فلما عدتُ وجدت الدرس قد انتهى .. فعجبتُ كيف انتهى من المئة فائدة بهذه السرعة وهو بطيءٌ رتيب، فسألت أحد المشرفين .. كيف حصل ذلك ..؟ فأخبرني أنهم اضطروا إلى إيقافه بالتي هي أحسن !

ومرّةً أخرى .. استضفنا متخصصًا في العقائد ليُحدّثنا عن تاريخ الديانة النصرانية، فشرَع في الحديث بوتيرةٍ مملّةٍ لا تحفّز على التركيز والإنصات، فانساحَ الملل في نفوسِ الطلاب .. انسياحًا تبديه سحناتهم، وأسهب وأطال، وانصرف الناس من صلاةِ العشاء وهو لا يفتر ولا يني، ثم طلب أن تُقام الصلاة .. على أن يكمل حديثه بعد الصلاة، ففعلنا .. من سمع حديثه ظنّ أنه يخاطب أهل فنٍّ متخصصين، يستغرق استغراقًا ليس

هذا محلّه، والمشرفون .. والطلاب لهم تبع .. يجاملون ويتصنّعون، فلما فرَغ .. لكأن صخرةً كانت جاثمةً على الصدور قد أُزيحت !!

وغير هذا من المواقف كثير !

ما المطلوب إذًا ..؟ عندي عددٌ من الإشارات حول المواضيع الثقافية أُجملها في الآتي :

١. الأليَق بالمحضن المثالي أن يبدأ بتنسيق اللقاءات الثقافية في وقتٍ باكر جدًا، فالتأجيل يُقلّصُ الفُرصَ المتاحة، ويربك نظام المجموعة، نسّق اللقاءات الخمسة أو العشرة الأولى قبل انطلاق الفصل الدراسي، وعندها لن تُلام إن شابَك إخفاق.

٢. قبل أن تستضيف أحدًا ليلقي على مجموعتك موضوعا مناسبا .. احرص على أن تعرف مدى كونه مناسبًا للمجموعةِ أو لا ! إن بحثتَ وسألتَ وجدتَ، ذلك خيرٌ من أن تستضيف مَن لا تكون الفائدة حاضرةً في حديثه بالشكل المطلوب .

٣. بعضُ المُلقين يتميّز في الحديث عن موضوعات معيّنة، فاحترام التخصص حينها أكمل وأقوم، مثلًا .. لا تستضف فقيهًا ليتحدث عن بعض القضايا التربوية وهو لا يملك رصيدًا من التجارب في مجال التربية .

٤. المُلْقُون يتفاوتون في قدرتهم على شدّ انتباه المتلقي وتحفيز تركيزه، بعضهم يشدّ بطريقةِ إلقائه، وبعضهم بغرابةِ طرحه، وبعضهم بما معه من الوسائل والأدوات .. وهكذا ! إن كان في سابق علمك أن مادّة الملقي مهمة لكنه مُملّ .. فاحرص على أن تحصُره بين معقوفتين، حدّد له وقت البداية ووقتَ النهاية، قل له بأسلوبٍ لطيفٍ مؤدب : (أعطنا ما عندك في نصف ساعة أو ساعةٍ إلا ربعا) ! احرص أشد الحرص أن لا يطيل .. فإنه إن أطال تلاشت الفائدة . أما إن وجدته صاحبَ

أسلوبٍ جذّاب .. والطلاب منسجمون معه فلا تقيّده، دعه ينثر الفائدة تلوَ الفائدة بأسلوبه الأخّاذ المُحلّق، لا تحرم طلابك المتعة .

٥. نوّع في اختيار الموضوعات ووازن في ذلك .. أطروحةٌ إيمانية، ثم علميّة، ثم فكريّة، ثم في المعارف العامة، وهكذا .. لا تقيّد نفسك بالشرعيات، فإن النفس تملّ، استضف داعية، وطبيبا، وطيّارًا، ومهندسًا، وتاجرا، ورحّالا، وصاحبَ حرفة، اخرج من الدائرة الرتيبة المملة .. فإذا تزاحمت الأولويات، فقدّم الأهم .. اطرح ما يحتاجه المحضن من قضايا أولًا، ثم انظر فيما يستجد من الأحداث حولك فاطرقه ثانيا، فإذا انفك الزحام فانطلق ..

٦. لا يغرنّك مشهورٌ .. فإن الشُهرة بذاتها لا تعطيك فائدة، وربّ مغمورٍ أبلغ من مشهور .. وأقدر على تحريك القلوب وغرس المعاني الجليلة، لستَ قناةً فضائيةً تبحث عن مجدها الشخصي باستضافة الداعية المشهور والمفكّر الذي تشرئب إليه الأعناق ! أنتَ صاحبُ رسالة .. لا طالب مجدٍ أو شهرة، فاختر المفيد كي تصل الرسالة .

› برنامج "المذاكرة" .. نظرة أخرى !

في تجربتي التربوية .. وجدتُ أن للاختلاف والتنافر بين المشرفين بيئاتٍ يترعرع فيها، بعض هذه البيئات وجودها حتمٌ لا مفرّ منه، كاجتماعات العمل وما يدور فيها من نقاشات وما يكون فيها من تباين وجهات النظر، وبعضها يمكن الاستغناء عنه .. مما يعني تحجيم مساحة الخلاف وتجفيف منابع الفرقة..! ولقد وجدتُ أن برنامج "المذاكرة" الجماعي .. والذي تقيمه كثيرٌ من الحلقات التربوية في فترة الاختبارات .. أحد أخصب البيئات التي ينمو فيها الخلاف والشقاق بين مشرفي المحضن الواحد، وبواعث الخلاف تجتمع فيه ما لا تجتمع في برنامجٍ آخر، فهو :

١. برنامجٌ يستوجب عددًا كافيًا من المشرفين لمتابعة سير البرنامج وضبطِ نظامه.

٢. كما أنه برنامجٌ يمتدُّ وقته من بعد العصر إلى وجبةِ العَشاء لمدةِ أسبوعين على الأغلب وبشكلٍ يومي.

٣. كما أن موعده يتوافق أحيانًا مع بدء الإجازة الدراسية لدى بعض المشرفين .. ولو في بعض فتراته، مما يعني انفلات المشرف وعدم قدرته على الانضباط في البرنامج ..! مما يعني أيضًا عدم التزامه بمرور الطلاب وإعادتهم في الوقت المحدد، وعدم التزامه بما ورد في الفقرة الأولى آنفا .

فالذي يحصل :

أن الذي يستمر في متابعة سير البرنامج، ويواظب على الحضور .. هو غالبًا المشرف الذي يرتبط باختباراته الجامعية، فتراه يتيه بين دراسته وبين متابعة الطلاب في البرنامج، بينما صاحبه الذي بدأت إجازته للتوّ منشغلٌ بتمضية وقت فراغه بشيءٍ آخر بعيدًا عن الجدّ الذي خرج لتوّه منه، فتبدأ الغيابات والاعتذارات وتتضخم مسؤولية مَن اختار التضحيةَ ليبقى مع الطلاب، ويجد في نفسه شيئًا على مَن تركه في هذا المعترك وحيدًا أو شبه وحيد .. فإن فكّر في إبدائه خشيَ على القلوب أن تصيبها ندوبٌ لا تزول آثارها، وإن استمرّ في الكتمان فليس ببعيدٍ أن ينفلتَ نظام البرنامج !

في الحقيقة .. لم تكن الحالات التي رأيتها في هذا البرنامج واحدةً ولا اثنتين ولا ثلاثا، بل تكررت مرارا، وكنت أدعو إلى إيقافه والاكتفاء بمذاكرة الطلاب في بيوتهم بين عيني أهليهم، وأخيرًا .. تم هذا، واستطعنا بعد طول تجربة أن ننهي هذا الإشكال الذي استنزف من ودّنا ما استنزف، بل ساهَم هذا الإيقاف إلى تقويةِ آصرة المشرفين فيما بينهم؛ إذ قرروا إقامةَ برنامج للمذاكرة خاص بهم، شريطةَ أن لا يكون مثاليًا، فمن شاء حضر، ومن شاء انصرف .. فاجتمعوا فيه، واجتمعت القلوب وتآلفت ولله الحمد !

فإن قيل : إنني أقمتُ البرنامج، وما زلتُ أقيمه .. وليس هناك ما يُشكِل ! أقل : في الأمر سعَة .

› وفي المذاكرةِ فكرة ..

من الأفكار النافعة التي طبقناها في برنامج المذاكرة .. فكرة الاستعانة بالكوادر المتميزة في التخصصات العلمية ليقوموا بمهمة توضيح المبهم وكشف الغامض للطلاب فيما يتعسّر عليهم فهمه أثناء المذاكرة، في شتى التخصصات .. في اللغة الإنجليزية والرياضيات والفيزياء والكيمياء وغيرها من المواد، ويكون ذلك وفق آليةٍ يتم إعدادها قبل بدء الاختبارات، مع التأكيد على أن مهمة الأستاذ تقتصر على شرح ما يستشكله الطلاب؛ إذ الوقت لا يسع لشرح المادة بأكملها .. ولا تسل عن الفائدة العظيمة التي يجنيها الطلاب من مثل هذه الدروس، فقد جربتُ واستفدت .. ولن تُعدَم من يحتسبُ في ذلك ! بل قد تجد الكادر قريبًا منك، إما مشرفًا معك، أو والدَ طالبٍ من طلابك، أو قريبَه، أو مدرسًا في منشأة تعليمية له صلةٌ بهذه المحاضن .. أو غير ذلك ! ولو رأيتَ غبطةَ أهالي الطلاب بصنيعك هذا، وفرحَهم بحرصك على أبنائهم .. لحرصتَ على ذلك غايةَ الحرص، فافعل تجدْ شُكرًا باذخًا ودعاءً عريضا .

› وجدتهم من المتفوقين ..

الذي يتأمل المحاضن التربوية .. يجد أن برامجها تستوعب الفترة المسائية للطالب والمشرف معًا، وهما في الفترة الصباحيةِ على ارتباطٍ بالمؤسسات التعليمية النظامية، فيا ترى .. كيف لهؤلاء أن يلتفتوا إلى شؤون دراستهم ؟ وكيف لمثلهم أن يجدوا فراغًا يُمكّنهم من التفوق في مدارسهم والإنجازِ في محاضنهم !؟

لقد رأيتُ البرَكَة هُنا .. بركَةَ القرآن .. والصحبةَ الصالحة .. بركةَ الدعوة والتربية .. ودعواتِ الآباء والأمهات !

لقد أحصيتُ غير ما مرّةٍ عدد المتفوقينَ من طلاب المحضن فوجدتُ أكثرهم – أكثر من ٩٠٪- من المتميّزين والمتفوقين دراسيا، وهم منضبطون بالبرنامج المسائي في الجملة، ووجدتُ كثيرًا منهم يُحضِرُ كتبه معه .. فإذا انتهى من التسميع انزوى في زاويةٍ وأخذ يُقلّب الأوراق ويستذكر ما سيُسأل عنه في الغد .

وكذلك في المشرفين متفوّقون .. بل أفذاذ، بل بعضهم يخوض في تخصصاتٍ صعبةٍ تحتاج إلى جُهد مضاعف وتفرغٍ تام، ومع ذلك هو مباركٌ هنا وهناك . ولقد رأيتُ من المشرفين من لا يجد وقتًا للمذاكرةِ إلا قبل الاختبار بسويعاتٍ قليلة فيفتح الله عليه، ورأيت منهم من لا يجدُ وقتًا لمذاكرة اختبار الغد .. فيقتنص أوقات الفراغ في الجامعة أو ينظر في المحاضرات التي لا يراها ذات أهمية .. فيفتح الكتاب ليستذكر مادة الغد .. جسدٌ حاضر .. وقلبٌ مغروسٌ بين السطور ! كلُّ هذا لئلا ينشغل عن محضنه في الفترة المسائية .. فكان الفتح والتوفيق .

ولْيُعلَم أن الدعوةَ والتربية ليستْ مُقايضة .. فأنت تعمل لله، وظيفتك وظيفة الأنبياء والرسل .. فلا تترقبْ غير الأُخرى، فإن أعطاك الله في الدنيا .. كان ذلك من الجزاء المُعجَّل، وما عند الله خيرٌ وأبقى .

› الأهمّ .. أن لا يستبدّ به الفراغ !

مرّتْ بي فترةٌ ضقتُ فيها بسبب كثرة غياب الطلاب .. غالبهم كان يغيب لينشغل بمذاكرة اختبار الغد، يصل الغياب اليومي في بعض الأحيان إلى سبعة أو ثمانية طلاب، وهذا يؤثر سلبًا على الجوّ العام للمنشط ..

كعادته .. انفردَ بي "أبو راكان" ليسألني عن حال المحضن، وهو يفعل هذا بين فترةٍ وأخرى .. أخبرتُه بأني أجد في نفسي على الطلاب شيئًا من هذه الغيابات المتضخمة بسبب الاختبارات، و أن هذا الانفلات قد يؤثر على الجوّ العام للمحضن، وقد يُشجِّع

البقيّة على التراخي .. فقال لي بحكمة : (ما دام الغياب بسببِ أمرٍ يشغل وقتَ الطالب .. فلمَ التبرُّم ..؟ أليسَ هو منشغلًا بما ينفع ..؟ أليسَ هذا من الجدِّ المحمود ..؟ المهم أن لا يكون غيابه عبثًا وتهرُّبا) .تأملت في كلماته .. فآمنتُ أنه قال حقّا !

أما تأثير هذا على الجوّ العام للبرنامج، فهو بلاءٌ يحتاج إلى احتسابٍ وصبر، ويكون الخطب هينًا حين تعلم أن الغياب أمرٌ عارضٌ وطارئ وليس هو الأصل، لا سيّما وأن الدراسة من الأولويات التي يجب على الطالب الاعتناء بها، فإذا تزاحمت الأولويات وتضادت .. كانت الاختبارات المؤقتة أولى بالتقديم من المحضن الدائم، والله أعلم .

› التربية على "السّلوم" ..

العُرف له مكانته في الشريعة ما لم يكن مصادمًا لها، ويدخل تحت العرف في الاصطلاح المعاصر ما يُعرَف بالعادات والتقاليد و"السلُوم"، وهي جزءٌ من ثقافةِ المجتمع وتكوينه، واحترامها والتأدب بها أمرٌ محمود، والإخلال بذلك .. نقصٌ في المروءةِ وخوَرٌ في الطبيعة، ولقد رأيتُ من بعض المشرفين وبعض الطلاب ما لا أحصي من المشاهد التي تخرِم عُرفَ الناس وآدابهم وتقاليدهم، و لا تدري هنا من الملوم ! فمن تلومُ حين ترى طالبًا يضطجع في مجلسٍ لا يليق به الاضطجاع ..؟ ومن تلوم حين ترى طالبًا يبدأ بالأكل قبل أن يبدأ الآخرون ..؟ ومن تلوم حين ترى طالبًا يتعارك مع طالبٍ آخر – ولو على سبيل المزاح - وهم ضيوفٍ في منزل أحد الطلاب ..؟ ومن أعجب ما رأيت .. أن أحد الطلاب في رحلةٍ خلويّة أراد أن يسكب القهوةَ للشباب الحاضرين .. فبدأ أوّلًا بتوزيع "الفناجيل" على الحاضرين وهي فارغة، ثم عاد فأخذ "الدلة" وبدأ يسكب القهوة لهم واحدًا بعد آخر !! ما هذا !!؟

في مثل هذه المواقف وأمثالها لا تملك إلا التوجيه على انفراد، ولا يكون سدُّ الفجوات ورتق الفتوق إلا من خلال المعايشة الطويلة، فإنه لولا طول الخلطة لما تبدّت هذه السوْءات، وواجبنا هنا أن نربي .. فإن البيتَ يزِلّ .. وإن الأهلَ تعتريهم غفلة .

› المرحلة المتوسطة .. أساس البناء !

جاءني مشرف المرحلة الثانوية يشتكي من حال طلّابه، طلابٌ منهمكون في التوافه لا يأخذون الدينَ بقوّة، منشغلون بتقليب هواتفهم حتى في أوقات الصلوات والاصطفاف لها، قلّ منهم مَن يميّز بين وقتِ الجدِّ ووقت العبث ! كان مشرفهم يبحث عن العلاج .. يتساءل بحرقة: كيف لي أن أعيد صياغتهم من جديد ..؟ كيف أخرجهم من هذا العبث والتبلّد إلى حياةِ الجدّ والعزمِ والقوّة ..؟ أخبرته أن العلاج لا يكون فعّالًا إلا حين نصل إلى تاريخ المرضِ وكيف بدأ؟ وما هي الأسباب التي ساهمت في تفشّيه في محضنكم بهذا الشكل ..؟ لو لم ننجح في العلاج فلا أقل من أن نستأصل جذور المرض؛ حتى لا تتكرر الحالات ..

بحثتُ وإيّاه .. قلّبنا النظر .. فوجدنا أن أساس المشكلة نابعٌ من التنشئة والتربية التي تلقّوها في محضنهم إبّان المرحلة المتوسطة، كانوا شبه منفلتين، إهمالٌ تربويّ ظاهرٌ لا يخفى، وعلى النقيض .. تأملتُ في بعضِ المحاضن الناجحة تربويًا، فرأيتُ أن التأسيس منذ المرحلة المتوسطة هو أساس نجاحها وتميّزها، فإياكم وإهمال هذا .. أعينوهم على الجدّ منذ البداية دون عنَت، وأبشروا بجيلٍ آخذٍ للكتاب بقوّة .

› تغذيةُ الحماس ..

توليد الحماسِ وتغذيته أثناء إقامة البرنامج، سببٌ جوهريٌّ من أسباب نجاحه، والمشرفُ الحصيف يتفطّن لهذا ويعمل من أجله، ويسعى جاهدًا إلى إزالةِ كلِّ مُفتِّرٍ يُثبِّط فورةَ البرنامج، فإذا نجح في ذلك .. وجدَ من ردود الأفعال ما يحفّز همّته، وكان ذلك النجاح

سببًا من أكبر أسباب دوام عطائه، وسببًا من أكبر أسباب بقاءِ الطلاب في المحضن وحرصهم على المواظبة عليه، غذِّ الحماسَ في كلِّ مناشط محضنك أو أكثرها ما استطعت، واحرص على أن تكون النتائج متقاربة حال المنافسة والتحدّي .. حتى وإن كانت كرةَ قدَم ! كُنّا نحرص وقتَ البرنامج الرياضي أن لا يكون الفارق بين الفريقين كبيرًا .. أن يكون الفارق ثلاثة أهداف مثلًا .. يعني أن الفريق المنافس سيدخل في دوامةِ اليأس، وهذا يميت عزمهم ويقتل البرنامج ! كان "الطابور الخامس" من المشرفين يثابر في تقليص النتيجةِ عبرَ التراخي وإعطاء المتأخر فرصةً لتقليص الفارق، فينجحون في ذلك كثيرا .. وقد لا ينجحون !

قل مثل هذا في كل برامج محضنك، غذِّ الحماس، وكن حكيمًا في ذلك .

مخـرج :

سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ

وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ